همسات
قلب



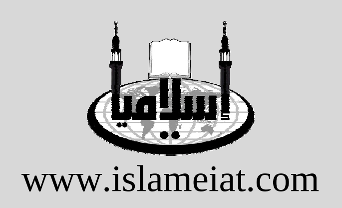
الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

سلسلة

إصدارات

موقع إسلاميات



www.islameiat.com

المحتويات

مقدمة

الحمد لله أحيا القلوب بمعرفته، وطهر النفوس بتزكيته، ورطب الألسنة بذكره، وشغل الجوارح بشكره، والصلاة والسلام على من عمرت الخشية قلبه، وغمرت التقوى نفسه، وكانت بالحسنى أقواله، وجاءت بالإحسان أفعاله، وعلى آله وأصحابه الذين أسهروا ليلهم بالقيام، وأظمؤوا نهارهم بالصيام، وعلينا وعلى سائر من تبعهم من أمة الإسلام وبعد،

فهذه كلمات ومقالات سطرتها في أوقات مختلفة، كلها وعظ وتذكير، وجلّها ترغيب وترهيب، كلمات ذات أثر، وقصص مليئة بالعبر، وأقوال للعلماء منتقاة، وأشعار للبلغاء مصطفاة، صغتها جميعاً في قالب أدبي وعظي أتمنى به أن تصل إلى سويداء القلب بعد سواد العين، وأن تحرك مشاعر النفوس وأفكار العقول، وأطمح أن تثير مراجعات مع الذات، ومناقشات مع الآخرين.

إنني أقرر – صادقاً لا متواضعاً – أن أكثر ما ورد في هذه الهمسات لا يحكي واقع كاتبه، بل أنا من المقصرين والمفرطين، ومن الغافلين المتكاسلين، ولعلي – وأنا أحسن الحديث والكتابة في الإيمانيات – أقدم الموعظة لنفسي لعلها تتذكر أو تخشى، ولعل الله يكتب لي أجر من يتعظ ويعتبر، فينجبر بأجر التذكير وزر التقصير.

هذه كلمات لرقتها سميتها (همسات)، ولروحانيتها جعلتها (همسات قلب)، فاقرؤوا فيها خفق القلوب المصلية، وابصروا فيها الدموع الخاشعة، وكونوا فيها مع المستغفرين بالأسحار، وعيشوا مع قوام الليل صوام النهار، لعل الله أن ينعم علينا بحياة دائمة لقلوبنا، وروحانية مشرقة في نفوسنا، وصلة حسنة عميقة بخالقنا.

وختاماً فإني أسأل الله أن يغفر لي زللي وتقصيري، وأن يستر علي ما يخفى على الخلق، وأن يكتب لي بهذه الكلمات أجراً، وأن يجعلها لي عظة وذكرى، وإن وجدت – أخي القارئ – خيراً فأملي أن تخصني بحسن الدعاء، وإن وجدت خللاً فظني بك أن تستر وتنصح، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.



القلوب المصلّية

إن القلوب المشفقة هي التي تخشع في العبادة، وترق عند الطاعة، وتخبت عند المناجاة، وتنكسر عند التضرع، إنها قلوب حاضرة، تكون مع كل عبادة روحها وحقيقتها، " فالخشوع هو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذلّ"[1]، وهو "انكسار القلب وإخباته وتواضعه لله عز وجل وذلته، وسكون الجوارح من أجل ذلك"[2].

"اعلم - رحمك الله - أن الخشوع روح الصلاة وحياتها، ونورها وضياؤها، وبه تصعد إلى الملأ الأعلى، وتنهض في السماوات العلى "[3]، فالقلوب الخاشعة تتبعها الأذهان الحاضرة، وتسكن معها الجوارح العابثة، قال سعد بن معاذ: " ما كنت قط في صلاة فشغلتُ نفسي بغيرها حتى أقضيها"، وعلى سنن الصحابة مضى التابعون فأُثِر

---

(١) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص ٢٧٥.

(٢) الصلاة والتهجد لابن الخراط، ص١٧٩.

(٣) الصلاة والتهجد ص١٧٩.

عن الربيع بن خثيم أنه قال: " ما دخلت قط في صلاة فأهمني فيها إلا ما أقول وما يقال لي "، وقيل لعامر بن عبدالله بن قيس: أتحدث نفسك بشيء في الصلاة ؟، قال: نعم، بوقوفي بين يدي الله عز وجل، ومنصَرفي إلى أحد الدارين، فقيل له: لا، إلا بما نحدث به أنفسنا من أمر الدنيا، وما يوسوس به الشيطان إلينا، فقال: لأن تختلف الأسنة (الرماح) في صدري أحب إلي من ذلك"[1]، لله درّ القوم وقد تعلقت بالصلاة قلوبهم وعقولهم وأجسادهم.

إن الله ربط مدح المصلين بخشوعهم حين قال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢]، "والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإن

(١) الصلاة والتهجد ص١٩٤.

الثواب على حسب ما يعقل القلب منها"[1] ، "فعليك – رحمك الله – أن تحضر قلبك في صلاتك جهد استطاعتك ومبلغ طاقتك ، وألا تصرفه ها هنا ولا ها هنا ، وألا تمر به هكذا ولا هكذا ، وأن تدفع عنه الخواطر المائلة به ، والأحاديث الشاغلة له ، وأن تسمع ما تقرأ ، وتعقل ما تفعل ، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت ولا يكتب لك منها إلا ما فيه حضرت"

فأين قلوبنا في الصلاة ؟ ، إنها سابحة في بحار الدنيا ، غارقة في هموم الحياة حتى لا تكاد تعقل من صلاتها شيئاً ، يَقُولُ النبي ﷺ : **((إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا تُسْعُهَا ثُمُنُهَا سُبُعُهَا سُدُسُهَا خُمُسُهَا رُبُعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا))**[2] ، اللهم رحمتك وعفوك.

أخي الحبيب :

هل هذه الصلاة يصلح أن نقف بها بين يدي الله ؟ وهل هي التي يرضى عنها الله ؟ وهل هي التي يصح أن نرفعها إليه ؟

" قال بعض السلف : الصلاة كجارية تُهدى إلى ملك الملوك ، فما الظن بمن يُهدي إليه جارية شلاّء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد

---

(١) تفسير السعدي ص٥٤٧.

(٢) مسند أحمد (١٩٤٠٧).

والرجل أو ذميمة أو قبيحة حتى يُهدي إليه جارية ميتة بلا روح.. فكيف بالصلاة يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى، والله طيب لا يقبل إلا طيباً، وليس العمل الطيب صلاة لا روح فيها "[1].

أخي الحبيب:

" إذا قمت إلى الصلاة فتذكر من أنت إليه قائم، وبين يدي من أنت واقف، واعتقد نفي ما يجري عليك من الخواطر المذمومة، فإذا فرغت فاستغفر الله عز وجل، فإنه سبحانه يقبل العقد الأول والآخر، ويغفر ما بينهما برحمته تبارك وتعالى"[2]، " وكما يجب ألا تصرف وجهك عن قبلتك في صلاتك، فكذلك لا تصرف قلبك عن ربك "[3].

أخي الحبيب:

استحضر عظمة ربك، وتدبر في صلاتك، في كلماتها ومقاماتها وحركاتها من أولها إلى آخرها واعلم أنه " ينبغي للعبد إذا قال في صلاته (الله أكبر) عند افتتاحها، أن يكون ذكر الله في قلبه أكبر وأعظم من أن يذكر معه سواه، أو يخلط ذكره ذكر شيء من دنياه

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٦.

(٢) الصلاة والتهجد ص ١٨٣.

(٣) الصلاة والتهجد ص ١٨٢.

إجلالاً له وتعظيماً "[1]، فإن معنى تكبيرة الإحرام " أن الذي يقوم إلى الصلاة إذا كبر تكبيرة الإحرام فقد حرّم على نفسه كل ما كان مباحاً له قبلها من الاشتغال بالدنيا ومعاشها، وما كان فيه من مخالطة أهلها "، " وأما من كان في صلاته مقبلاً على سهوه وغفلاته، فليس لصلاته تحريم، ولا لمناجاته حين يناجي ربه فيها تعظيم"[2].

"كان ابن الزبير إذا قام إلى الصلاة كأنه عود "[3]، " وكان علي بن الحسين إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له، فقال: تدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي؟، وكان إذا توضأ أصفر "[4]، ومثله " كان وكيع إذا قام إلى الصلاة ليس يتحرك منه شيء، ولا يزول ولا يميل على رجل دون الأخرى "[5]، "وقيل عن محمد بن نصر المروزي: ما رأيت أحسن صلاة منه، وبلغني أن زنبوراً قعد على جبهته فسال الدم على وجهه ولم يتحرك.. ولقد كنا نتعجب من حسن صلاته وخشوعه وهيئته للصلاة، كان يضع ذقنه على صدره فينتصب

(١) الصلاة والتهجد ص١٧٤.
(٢) الصلاة والتهجد ص ١٧٥.
(٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ١/ ٢٨٣.
(٤) نزهة الفضلاء ١/ ٤٠٦.
(٥) نزهة الفضلاء ٢/ ٦٩٩.

كأنه خشبة منصوبة"[1]، ولعلك لا تعجب حينئذ من قول "سفيان الثوري: لو رأيت منصور بن المعتمر يصلي لقلت: يموت الساعة "[2]، ولا من قول " أبي بكر بن عياش: رأيت حبيب بن أبي ثابت يصلي وكأنه ميت – يعني من خوفه وخشوعه "[3] لأن القوم قد ملأ الخشوع قلوبهم فسكنت جوارحهم.

ولا عجب من ذلك فقد سبقهم إليه أصحاب رسول الله ﷺ في وصاياهم وأعمالهم، فهذا جندب بن عبدالله يقول: "إذا وقفتم بين يدي ربكم للصلاة فاجعلوا الجنة والنار بين أيديكم والميزان والصراط حولكم كأنكم تقولون: ﴿**أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾[السجدة: ١٢]"[4]، وهذا "الفاروق عمر رضي الله عنه غلبه البكاء في صلاة الصبح حتى سمع نحيبه من وراء ثلاثة صفوف "[5].

والجميع مقتدٍ برسول الهدى ﷺ مستضئ بهديه فقد " ذكر مالك في الموطأ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ أَهْدَى أَبُو جَهْمِ بْنُ حُذَيْفَةَ

(١) نزهة الفضلاء ٢/١٠١٤.

(٢) الصلاة والتهجد ص ١٩٢.

(٣) الصلاة والتهجد ص ١٩٣.

(٤) الصلاة والتهجد ص ١٨٥.

(٥) مختصر قيام الليل للمروزي ص٢٣٤.

لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمِيصَةً شَامِيَّةً لَهَا عَلَمٌ فَشَهِدَ فِيهَا الصَّلَاةَ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: ((**رُدِّي هَذِهِ الْخَمِيصَةَ إِلَى أَبِي جَهْمٍ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَى عَلَمِهَا فِي الصَّلَاةِ فَكَادَ يَفْتِنُنِي**))[1]، وذلك" لتقتدي به في ذلك أمته، يتفرغون لصلاتهم بترك ما يشغلهم عنها، ويفتنهم فيها وهذا أصح والله أعلم "[2].

أخي الحبيب:

" إذا خشع قلبُك وحضر انطرد وسواسك، وقصُر عليك من الصلاة ما طال على غيرك "[3]، وقد رأيت صلاة القوم وخشوعهم وسكونهم ودموعهم، فإنه وإن كانت أجسادهم قائمة وراكعة وساجدة فإن قلوبهم مصلية، هكذا كانوا.. فهل نكون؟.



(١) الصلاة والتهجد ص ١٨٤.

(٢) الصلاة والتهجد ص ١٨٤.

(٣) الصلاة والتهجد ص ١٩٥.

سياحة روحية

نحن في عصر تزينت فيه الشهوات ، وتنوعت فيه الشبهات ، وتزايدت المغريات ، وكثرت الملهيات ، حتى كادت معها أن تعمي القلوب ، وتموت الأرواح ، والمسلم اليوم يبحث عن لذة الروح ، وخشوع القلب ، ودموع العين ، فلا يجد من ذلك إلا أقل القليل ، فأين قوت القلوب وغذاء الأرواح ؟ وأين لذة العبادة ، وحلاوة الطاعة ؟ ، وأين ترطيب الألسنة بالأذكار ؟ وأين الاستغفار بالأسحار ؟ ومن ثم أين صفاء النفوس والسرائر ؟ وأين جلاء القلوب والبصائر ؟ ومن بعد أين حسن الأقوال وصلاح الأعمال وصدق الأحوال ؟.

إنه لا بد من استشعار الخطر ، ومعرفة الأثر ، فإن داء القلوب أشد فتكاً وأعظم ضرراً ، وإن هزال الأرواح وكدر النفوس بلية البلايا ورزية الرزايا ، والعجيب أن هذا الخطر الماحق لا يفطن له كثيرون ، ولا يشعرون به ، إنهم رغم أدواء قلوبهم وعلل نفوسهم يمضون في حياتهم كأن شيئاً لم يكن ، وكأنهم لم يفقدوا شيئاً يتحسرون عليه ، مع أنهم في أعظم خطر

وأكبر خسارة في أجلّ أمر وهو صلتهم بالله ، وصدق من قال : " من فقد الله فماذا وجد؟ ومن وجد الله فماذا فقد؟" ولله در ابن القيم وهو يصف هذه الحال بقوله : " ومن أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه ، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة ، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره ، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له ، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته ، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته ، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه ، وأعجب من هذا علمك أن لا بد لك منه ، وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض "[(١)]

حقاً إنه لأمر عجب بل هو أعجب العجاب ، كيف يسعد من قلبه قاسٍ خرب ؟ ، " وخراب القلب من الأمن والغفلة ، وعمارته من الخشية والذكر "[(٢)] ، "اطلب قلبك في ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة ، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك"[(٣)] ، الله أكبر كم

---

(١) الفوائد ص ٦١.

(٢) الفوائد ص١٢٩.

(٣) الفوائد ص ١٩٥.

للقلوب في تلك المواطن من موات وغفلة، فكيف إذن يعيش ويحيا من لا قلب له ؟.

كلما عرض عارض صحي التمس الناس له الشفاء، وبحثوا عن الدواء، والتزموا الحمية، وصبروا على العلاج، ومع ذلك فإنهم عن داء قلوبهم وسلامتها غافلون، " والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسد وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة"[1]، فأين المؤمنون من علاج أدواء قلوبهم وجلائها وزينتها وحسن كسائها؟

إن الحكام العادلين والعلماء العاملين والدعاة المصلحين والقادة الفاتحين كانوا أهل قلوب وأرواح، من المحراب انطلقوا، وبالسجود والذل لله ارتفعوا، وبزاد الإيمان والتقى انتفعوا، وبصدق التوكل واليقين انتصروا، وبكمال الإخلاص والتجرد اشتهروا.

وكلهم كانوا:

إذا سجى الليل قاموه وأعينهم ... من خشية الله مثل الجائد الهطل

هم الرجال فلا يلهيهمُ لعب ... عن الصلاة، ولا أكذوبة الكسل

(١) الفوائد ص١٢٩.

وصـــــدق الله القائـــــل : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[النور: ٣٧].

معشر الدعاة يا من تتصدرون المجالس، وترتقون المنابر، وتتصدون للوعظ والإرشاد، وتقصدون هداية العباد، ألا ترون أن هناك فرقاً كبيراً، وبوناً عظيماً بين هذه الصفة – صفة الصفوة – والحقيقة اللازمة لها، فأنت – أيها الداعية – ينبغي أن تكون أحيا الناس قلباً، وأصفاهم نفساً، وأخلصهم قصداً، وأسرعهم عَبْرة، وأكثرهم خشية، وأصدقهم توكلاً، فهل ذلك حقاً هو ما تتصف به ؟ ألا تعترف بأن الحال ليس كما ينبغي، وأن من الدعاة من ألسنتهم لاغية، وقلوبهم لاهية، وعيونهم جامدة، أفلست بحاجة ماسة إلى مكاشفة صريحة، ومراجعة دائمة؟، وخذ هذا الوصف من سيد من سادات الدعاة والعلماء، الحسن البصري يقول في وصف الصفوة: " حسنت ملابسهم بالاقتصاد، وممشاهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تبارك وتعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوا أو كرهوا، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم، ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين لرضا الخالق، شغلوا الألسن بالذكر، وبذلوا

أنفسهم لله حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم"[1]، وأزيدك من كلامه مزيداً من الصفات حيث يقول: " قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة، أما الليل: فمصافة أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم: ربنا ربنا، وأما النهار فحلماء علماء، بررة أتقياء، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ولكن خالطهم من ذكر الله أمر عظيم ".

أين أنتم معاشر الدعاة من هذه الصفات، وتلك المقامات، وكثيرون قد استكثروا من المباحات، وشغلوا بالأبناء والزوجات، وألفوا الكسل، وعافوا العمل، حتى ركنت لذلك نفوسهم، وقنعت به همومهم، وذلك نتيجة حتمية لمن ترك تزكية النفس بالطاعات، وطهارة القلب بالقربات، ومن المعلوم "إن في النفوس ركوناً إلى اللذيذ والهين، ونفوراً عن المكروه والشاق، فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق، ورضها وسسها على المكروه الأحسن، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح معاليها، وحتى تنفر عن كل دنية وتربأ عن كل صغيرة، علّمها التحليق تكره الإسفاف، عرّفها العز تنفر من الذل،

---

(١) رسائل مبكية ١٣٧، ١٣٨.

وأذقها اللذات الروحية العظيمة تحقر اللذات الحسية الصغيرة"[1] ، وخذها أخيراً من عَلَمِ الدعوة المعاصرة حسن البنا يوصيك قائلاً : " لعل أطيب أوقات المناجاة أن تخلو بربك والناس نيام والخليون هجع ، وقد سكن الليل كله وأرخى سدوله وغابت نجومه فتستحضر قلبك ، وتتذكر ربك ، وتتمثل ضعفك وعظمة مولاك ، فتأنس بحضرته ، فيطمئن قلبك بذكره ، وتفرح بفضله ورحمته ، وتبكي من خشيته ، وتشعر بمراقبته ، وتلح في الدعاء ، وتجتهد في الاستغفار ، وتفضي بحوائجك إلى من لا يعجزه شيء ، ولا يشغله شيء عن شيء ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وتسأله لدنياك وآخرتك ، وجهادك ودعوتك ، وآمالك وأمانيك ، ووطنك وعشيرتك ، ونفسك وإخوتك وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم "[2] .



(١) الرقائق ص ٥١

(٢) مجموعة الرسائل ص ٥٠٥.

هكذا كان بكاؤهم.. فهل نكون ؟

إنها صافية اللون، لؤلؤية البريق، تتحدر على الوجنات، وتمتزج بشهيق العبرات، إنها قطرات الدموع، مبدؤها قلوب مشفقة، وعقول متدبرة، وألسن تالية، وشفاه مسبحة، ومن بعد عيون دامعة، إنه بكاء الخشية والخوف، بكاء الرجاء والشوق، بكاء التوبة والندم، بكاء الإدكار والاعتبار، بكاء تغسل به الدموعُ الذنوبَ، وتمحو به العبراتُ السيئاتِ، لله ذلك البكاء، ما أجلاه للقلوب، وما أزكاه للنفوس!

أين بكاء الخلوة من بكاء الجلوة ؟ وأين بكاء العُبَّاد الخاشعين من بكاء العشاق المحبين ؟ أين الثرى من الثريا ؟ مع تلاوة كل آية دمعة، ومع كل دعوة دمعة، ومع كل سجدة دمعة، دموع غزيرة لكنها عزيزة.

إنه بكاء التلاوات، وبكاء الصلوات ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، ومثل

هذا البكاء بكاء قوة لا ضعف، وبكاء عز لا ذل، إنه نعمة من الله، وقربة إلى الله، وسمة لصفوة خلق الله ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

إنه بكاء التعلّق بطاعة الله، والشوق إلى لقاء الله، والحب العارم لنصر دين الله ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، عجباً للقوم، ما السبب في أن عيونهم تفيض دمعاً؟ إنهم يبكون لأنهم حرموا فرصة الموت في سبيل الله، الله أكبر! " بمثل هذا الروح انتصر الإسلام، وبمثل هذا الروح عزت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء "[١].

إنه بكاء العظة والعبرة تلامس القلوب فتذرف العيون، صورة رسمتها رواية العرباض بن سارية رضي الله عنه حين قال: (وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب)[٢] ما أعظم الواعظ وما أرق السامعين!

---

(١) الظلال (١٦٨٦/٣).

(٢) سنن الترمذي حديث رقم (٢٨٩١)، سنن أبي داود حديث رقم (٤٦٠٩).

إنه بكاء الحب لرسول الله ﷺ تجلى عندما قال: ((**ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟... فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً**))[1]، وعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول على منبر رسول الله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فبكى أبو بكر رضي الله عنه حين ذكر رسول الله ﷺ. لله أنت يا رقيق القلب يا سريع الدمع يا عظيم الحب، يا أبا بكر الصديق[2]!

إنه بكاء التذكر والتفكر في الموت والقبر، والبعث والنشر، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال: ((**عَلامَ اجتمع هؤلاء ؟ قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله ﷺ: فبدر بين أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا وقال: أي إخواني لمثل اليوم فأعدّوا**))[3] أي موعظة بليغة حية مثل موعظتك يا رسول الله ؟

---

(١) مسند أحمد (١٢٠٤٩).

(٢)مسند أحمد حديث رقم (٦).

(٣) رواه أحمد حديث رقم(١٩١٠٨).

إنه بكاء الندم على التقصير في دقيق الأمور قبل جليلها، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام خطيباً فكان فيما قال: ((**ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بالحق إذا علمه**)) قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا[1]. فليسمع وليقرأ العلماء والدعاة ليتعلموا السمت ويعرفوا التبعة.

اقتربوا أكثر فأكثر لتروا الدموع وتسمعوا البكاء، فهذا عبدالله بن الشخير رضي الله عنه يقول: (رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء)[2]، وهذا ابن مسعود يتلو على الرسول ﷺ من سورة النساء، حتى قوله ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾[النساء: ٤١]، قال: ((**فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل**))[3].

فلنعش مع الأصحاب رضوان الله عليهم.. فهذا أبو أمامة رضي الله عنه يخبر فيقول: (خطبنا رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا فبكى سعد فأكثر البكاء)[4]، وارقبوا صحب محمد وهم في مسجد رسول الله ﷺ

---

(١) رواه الترمذي حديث رقم (٢٣٥٠). وابن ماجه حديث رقم(٤١٤٣).

(٢) رواه أبو داود حديث رقم(٩٠٤). والنسائي حديث رقم(١٢٢٢).

(٣) رواه مسلم حديث رقم (١٩٠٣).

(٤) رواه أحمد حديث رقم (٢٢٩٥٣).

لما نزلت : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم : ٥٩-٦٠] بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع رسول ﷺ بكاءهم بكى معهم فبكينا ببكائه)[(١)].

واستمعوا معي إلى راوية الإسلام وعلم أصحاب الصفة أبو هريرة رضي الله عنه فقد بكى في مرضه ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : " أما إني لا أبكي على دنياكم هذه ولكني أبكي على بعد سفري ، وقلة زادي ، وإني أمسيت في صعود إلى جنة أو نار ، لا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي "[(٢)] ، الله أكبر يا أبا هريرة لقد أتعبت من بعدك ، وما عسى أن يقول أمثالنا إن كان هذا قول مثلك ؟!

ولنمض مع أجيال الإيمان في عصور التابعين ومن بعدهم ، فإن لغة البكاء وحديث الدموع مأثورة عندهم ومعروفة بينهم ، أما سمعتم عن محمد بن واسع رحمه الله وأنه كان يبكي حتى يرحمه الناس ، وسئل عن بكائه فقال : " يا أحبائي كيف لا يبكي من لا يدري ما أثبت في كتابه ، ولا يدري ما يختم به كتابه " ، ولله در سفيان بن عيينة حين أتاه سائل فسأله شيئاً ولم يكن عنده ما يعطيه ، فبكى رحمه الله ،

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، حديث رقم (٨٨١).

(٢) شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٧٣.

ولما سئل قال: " أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه"، بكاء على فوات الطاعة والخير، وبكاء آخر من الخشية روته فاطمة بنت عبدالملك عن زوجها أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز: " ما رأيت أحداً قط كان أشد فَرَقاً من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ثم رفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه "[(١)]، وأبو سهل الصعلوكي يسمع الحمامة قرب الفجر فيعاتب نفسه قائلاً:

أنام على سهو وتبكي الحمائم ... وليس لها جرم ومني الجرائم
كذبتُ لعمر الله، لو كنت صادقاً ... لما سبقتني بالبكاء الحمائم

ولنطو صفحات التاريخ لننتقل إلى أبي البقاء الرندي وهو يبكي ضياع الأندلس، ويحزن لحال المسلمين ويقطع القلوب بشعره حين قال:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ... ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٣/٢٠٩.

واليوم ما حال بلاد الإسلام، وما حال المسلمين ؟ وأين بكاؤهم ودموعهم من لهوهم وضحكهم ؟

معاشر المؤمنين يا دعاة الإسلام:

الحال يرثى له، فالقلوب - إلا ما رحم الله – قاسية، والعيون جامدة، استمعوا إلى عبد الأعلى التميمي وهو يقول: " من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفع، لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾"[1]، واستمعوا إلى وصية ابن مسعود: " ليسعك بيتك، وابك من ذكر خطيئتك، وكف لسانك"[2].

أيها القوم، أيها الدعاة:

أين دموعكم والقرآن يتلى، وسيرة المصطفى ﷺ تروى، والموتى تترى، والمواعظ شتى، والتقصير يطغى ؟

خذوا عن الربانيين أوصاف الخائفين في مثل مقالة السري السقطي: "للخائف مقامات منها الحزن اللازم، والهم الغالب،

(١) التخويف من النار لابن رجب ص٢٣.

(٢) الزهد لابن المبارك، ص٤٢.

والخشية المقلقة، وكثرة البكاء، والتضرع في الليل والنهار، والهرب من مواطن الراحة، ووجل القلب"[١]، فتشوا عن هذه الصفات، وابحثوا عن تلك الخلال، وابكوا على تلك الحال، وما صار إليه المآل، فالقلوب لاهية، والألسن لاغية، والخشية ذاهبة، فراجعوا أنفسكم، وتفقدوا قلوبكم، واجتهدوا في البكاء فإن لم يكن فليكن التباكي " فقد قال بعض السلف: ابكوا من خشية الله فإن لم تبكوا فتباكوا "[٢]، " وإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه"[٣].

أيها الدعاة:

خذوا هذه الوصفة لعلها تقود إلى البكاء: " طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء... ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه - أي القرآن الكريم - من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب "[٤].



(١) الزهد لهناد ابن السري، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٢) زادالمعاد١/١٨٥.

(٣) إحياء علوم الدين ١/٢٧٧.

(٤) إحياء علوم الدين ١/٢٧٧.

هكذا كانوا في الليل.. فهل نكون ؟

الليل المظلم مُشرق الأنوار، الصمت المطبق معطَّر بآيات القرآن، السكون الموحش مُبدد بانحناء الأصلاب وسجود الجباه، والجفاف اليابس مُبلل بدموع الأسحار، قلوب خاشعة، وأنفس زكية، وألسن ذاكرة، وأعين ساهرة، وجباه ساجدة، وجنوب متجافية، إنه مساء الصالحين وليل العابدين، إنها همة المتهجدين ولذة المتضرعين، إنه أنس المنفردين وحب المخلصين، إنها مجاهدة السالكين ومكابدة المرابطين، الله أكبر، ما أروع هذا الليل وما أحبه وما أمتعه وما أروعه !

أين هذا الليل من نوم طويل وركون ثقيل وغفلة تامة ؟ شتان بين النور والظلمة، وبين السمو والدنو، وبين الثرى والثريا.

إنه قيام الليل أيها النائمون، اسمعوا النداء ممن عمروه بالطاعات، وملؤوه بالصلوات، فهذا "زمعة العابد" كان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السَحَر نادى بأعلى صوته : " يا أيها الركب

المعرِّسون، أَكُل هذا الليل ترقدون ؟ ألا تقومون فترحلون"، فإذا طلع الفجر نادى: " عند الصباح يحمد القوم السرى "[1].

دعني أريك ليلهم، بل دعني وإياك نقضي ليلة معهم، هذا أبو هريرة رضي الله عنه " كان هو وامرأته وخادمه يقسِّمون الليل ثلاثاً، يصلي هذا ثم يوقظ هذا"[2]، فالليل كله صلاة ومناجاة، ودموع وخشوع، وذكر وشكر، والشعار لا للفرش الوثيرة، والنوم اللذيذ، إنهم الموصوفون بأبلغ قول وأعظم صورة في قوله تعالى: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ [السجدة: ١٦]، القرآن " يرسم صورة المضاجع في الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ المنام ولكن هذه الجنوب لا تستجيب، لأن لها شغلاً عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذ شغلاً بربها، شغلاً بالوقوف في حضرته، والتوجه إليه في خشية وفي طمع يتنازعها الخوف والرجاء "[3].

استمع إلى يزيد الرقاشي وهو يقول: " إذا نمتُ فاستيقظتُ ثم عدتُ في النوم فلا أنام الله عيني "، وتأمل هذا الحوار مع الفراش حيث

---

(١) صفة الصفوة (٢/٢٢٩-٢٣٠)

(٢) نزهة الفضلاء (١/١٩٩)

(٣) الظلال٥/٢٨١٢-٢٨١٣.

كان عبد العزيز بن أبي رواد " يُفرش له فراشه لينام عليه بالليل فكان يضع يده على الفراش ويتحسسه ثم يقول: ما ألينك، ولكن فراش الجنة ألين منك، ثم يقوم إلى صلاته"، نعم " هؤلاء القوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ بما هو أروح منه وأمتع، مشغولون بالتوجه إلى ربهم، وتعليق أرواحهم وجوارحهم به، ينام الناس وهم قائمون ساجدون، ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن ذي الجلال والإكرام"[(١)]، ولله در الفضيل بن عياض وهو يعرض وضعاً شعورياً إيمانياً بديعاً حيث يقول: " أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب فإذا تحرك قال: ليس هذا لكِ، قومي خذي حظكِ من الآخرة"، ولا تنس أنهم كانوا بذلك التعب يتلذذون، وبالقيام يفرحون، وبعيون غير أعيننا إلى الليل ينظرون فهو عندهم " موطن تنتعش فيه الأرواح، وتبتهج وترتاح، وتتقلب بين مسرات وأفراح، وتكثر من المساءلة والإلحاح.. فهي قائمة بين يدي خالقها، عاكفة على مناجاة بارئها، تتنسم من تلك النفحات، وتقتبس من أنوار تلك القربات، وما يَرِدُ عليها في تلك المقامات "[(٢)] ولذا جاءت وصاياهم وقد عملوا، وتذكيرهم وقد

(١) الظلال ٥/ ٢٥٧٨.

(٢) الصلاة والتهجد ص٣٠١.

اعتبروا، وحثهم وقد سبقوا، فها هو الحسن ينادي بكم قائلاً: " كابِدوا الليل، ومدّوا الصلاة إلى السحر ثم اجلسوا في الدعاء والاستكانة والاستغفار "[1]، وقال أبو محمد الجريري: " قصدتُ الجنيد فوجدتُه يصلي فأطال جداً فلما فرغ قلتُ: قد كبرتَ وَوَهَنَ عَظْمُكَ ورقَّ جلدكَ وضعفتْ قوتكَ ولو اقتصرتَ على بعض صلاتك، فقال: اسكت، طريق عرفنا به ربنا، لا ينبغي لنا أن نقتصر منه على بعضه، والنفس ما حملتها تتحمل، والصلاة صلة والسجود قربة ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، ومن ترك طريق القرب يوشك أن يُسلَك به طريق البعد"[2] وأبوسليمان الداراني يجدد هذا الفقه ويبين هذا الشعور بقوله: " أهل الليل بليلهم ألذ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، ولو لم يعط الله تعالى أهل الليل في ثواب صلاتهم إلا ما يجدون من اللذة فيها لكان الذي أعطاهم أفضل من صلاتهم"[3].

في ظلمة الليل للعباد أنوار ... منها شموس ومنها فيه أقمار
تسري قلوبهم في ضوئهن إلى ... ذاك المقام ومولاهم لهم جار

---

(١) الصلاة والتهجد ص٣٠٣.

(٢) الصلاة والتهجد ص٣٠٩

(٣) الصلاة والتهجد ص ٣١١.

تخالهم ويك موتى لا حراك بهم — وهـم مـع الله إقبـال وإدبـار
إن ينطقـوا فـتلاوات وأذكـار — أو يسـكتوا فاعتبـار وأفكـار
مستيقظين لذي الذكرى فكلهم — لـذا التـذكرِ أسمـاع وأبصـار

لم يستثقلوا القيام لأن النفوس راغبة، والنوايا صادقة، والخشية غامرة، "وإذا قوي الباعث وكثرت الرغبة، وعظمت الرهبة، نشطت النفس وخف الجسد، وذل الصعب، وهانت المؤنة "[1].

وإليك الترجمة العملية لذلك فيما قاله رجل لحممة العابد: " ما أفضل عملك ؟ فقال: " ما أتتني صلاة قط إلا وأنا مستعد لها ومشتاق إليها، وما انصرفت من صلاة قط إلا كنت إذا انصرفت منها أشوق إليها مني حيث كنت فيها، ولولا أن الفرائض تقطع لأحببت أن أكون ليلي ونهاري قائماً راكعاً ساجداً"[2]، ذلكم هو الشوق والتعلق، وهذا هو الذوق والتعبد، قلوب للعبادة ظامئة، ترتشف ولا ترتوي، تزيد ولا تحيد، نفوس بالذكر متلذذة، تغترف ولا تنصرف، تنصب ولا تتعب، " كان صلة بن أشيم يقوم الليل حتى

(١) الصلاة والتهجد ص٣١٥.

(٢) الصلاة والتهجد ص٣١٦.

يفتر فما يجيء إلى فراشه إلا حبواً "[1]، " لأمر ما سهروا ليلهم، ولأمر ما خشعوا نهارهم.. ينتصبون لله على أقدامهم، ويفترشون وجوههم سجداً لربهم، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقَاً من ربهم "[2]، قدوتهم سيد الخلق ﷺ وقد خاطبه ربه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[المزمل: ١-٢]، وناداه مولاه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾[الإسراء: ٧٩]، فقام ليله بلا مزيد عليه وسئل عن إتعاب نفسه وقد تورمت قدماه فقال – وما أعظم ما قال –: ((أفلا أكون عبداً شكوراً))[3]، ومن هنا جاء وصفهم بلسان الحسن حيث قال: " صحبت أقواماً يبيتون لربهم في سواد هذا الليل سجداً وقياماً، يقومون هذا الليل على أطرافهم، تسيل دموعهم على خدودهم، فمرة ركعاً ومرة سجداً، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، لم يَمَلُوا كلال السهر لما قد خالط قلوبهم من حسن الرجاء في يوم المرجع، فأصبح القوم بما أصابوا من النصب لله في أبدانهم فرحين، وبما يأملون من حسن ثوابه مستبشرين، فرحم الله امرءاً نافسهم في مثل هذه الأعمال، ولم يرض

---

(١) الصلاة والتهجد ص٢٨٨.

(٢) مختصر قيام الليل ص٦٣.

(٣) رواه البخاري حديث رقم(١١٣٠).

من نفسه لنفسه بالتقصير في أمره باليسير من فعله، فإن الدنيا عن أهلها منقطعة، والأعمال على أهلها مردودة" ثم يبكي حتى تبتل لحيته بالدموع[1].

وحالهم يطول وصفه، والسعيد من اقتدى بهم، ولي ولكم أقول: " هكذا كانوا.. فهل نكون ؟ ".



(١) التهجد وقيام الليل ص ٣٤٠-٣٤١.

الطريق من هنا

للـدعوة مسـتلزمات ومتطلبـات كثيرة، فهـي تحتـاج إلى علـم غزير، ووعــي عميق، وسياســة حكيمــة، وإدارة ناجحــة، وإعــلام قوي، وتخطيط محكم.

وفي ميدان الدعوة الإسلامية حوار مستمر، ونقاش دائم، وتفكير متواصل في قضايا الفكر والسياسة والتخطيط ونحوها، وقد أفرد لـذلك صفحات المجلات، وعقدت حوله الندوات، وصدرت فيه المؤلفات.

والتربية الإيمانية حياة الروح تكاد أن تكون قضية غائبة في زحـام هذه القضايا وتلك الحوارات.

وبعض الـدعاة ينظـر للتربيـة الإيمانيـة بمواعظهـا ورقائقها، وصـيامها وقيامهـا، على أنهـا نـوع مـن الدروشـة، أو خطـاب خـاص بالعامـة دون الخاصة من أمثالهم، وبعضهم يرى أن ما هـم عليـه مـن زاد العبـادة القليـل والرديء أحياناً يكفي ويشفي.

وهؤلاء غفلوا عن سمت السيرة النبوية، وهدي السلف الصالح، وشعار العلماء المخلصين، وصفة القادة الفاتحين، ودأب الدعاة المصلحين، وأن كل هؤلاء كانت تربيتهم الإيمانية العامل المشترك البارز الذي له أكبر الأثر في شخصياتهم، وأبلغ الأسباب فيما تفوقوا فيه ووفقوا إليه.

وهؤلاء نسوا المدرسة المكّية التي علمت الصحابة سمت الإيمان، ورسخت فيهم جذور اليقين، وحفلت بأسباب إحياء القلوب، وتميزت بقيام الليل، وإدمان التلاوة، وكثرة السجود، ودموع الخشية، ودعاء الأسحار، وترديد الأذكار، وأنهم من هذه المدرسة انطلقوا إلى ميدان الدعوة والجهاد، وإقامة الحياة الإسلامية في واقع الحياة، وفي جميع مجالاتها.

درس الدعوة الإسلامية المتجدد في كل القدوات وخلال كل الفترات يمثل هذا الشعار: " من المحراب إلى السياسة.. من الروحانية إلى الإدارة.. من الذكر والاستغفار إلى القوة والانتصار.. من حياة القلوب إلى مواجهة الخطوب وليس العكس"[١].

والتاريخ يؤكد لنا من خلال أحداثه ودروسه أن " طريقنا يمر قبل السياسة والاقتصاد وخلاف الفقهاء بتطهير الجنان " وأنه من المهم أن

---

(١) أ.سعيد حوى، إحياء الربانية (١٣) نقل بتصرف.

ندرك بوضوح أنه: "لابد من وجود أنماط التربية الإيمانية في الطريق الدعوي، وأن تجاوزها إلى الشكل السياسي المحض محفوف بالمخاطر، وقد ينتج أفئدة فيها قسوة، ليس لها من الصفاء وفرة نصيب، يؤدي إلى رجحان النفس الأمارة بالسوء على النفس الزكية"[1].

إن الناظر إلى دعاة اليوم يرى صور الخلل الناشئ من إهمال التربية الإيمانية فلا تخطئ عين الناقد، ابتعاد العمل الإسلامي عن فطريته، فالأخلاق فيها نقص، والحياة الروحية فيها ضعف، وكثيراً ما تظهر منافسات على الإداريات وانقسامات، وكثيراً ما يضيع القرار في غمرة الظواهر المرضية، وكثيراً ما يكون فرق بين الشعار والواقع، وكثيراً ما يغيب السمت النبوي على أصحاب الدعوة.

ومن الفقه الإيماني إدراك أن ضعف تأثير الدعوة، وقلة القبول لها، وعدم التجاوب معها إنما هو في الحقيقة من أثر ضعف الإيمان، والصلة بالله، فقد ترى عملاً كثيراً وأثراً قليلاً، كثر علم المحاضرين، وزادت حماسة الخطباء، ولكن الروح غير الروح، والإخلاص دون المطلوب، كما صور ذلك الشاعر جكر مراد آبادي حين قال: " ما أروع كلمات الخطيب وما أجمل تعبيره، ولكنني لا أجد في عينيه بريق الحب، ولا أقرأ في وجهه نور الإيمان وسيماء الحب والحنان"[2].

---

(١) أ.محمد أحمد الراشد، نحو المعالي (١٠).

(٢) د.عبدالرشيد صقر، أشواك في الحقل الإسلامي (٢٩).

نعم، إن فقدان الإخلاص أمات الكلمات، ودفنها تحت الأقدام، وإن خواء الروح وضعف اليقين جعل (إقبال) الشاعر الحكيم يصف الحال بقوله: " الصفوف معوجة منشقة، والقلوب خاوية حائرة، والسجدة خامدة هامدة، لا حرارة فيها ولا شقوق، ولا عجب فقد انطفأت شعلة القلب، وخمدت جمرة الفؤاد "[1].

ومن أثر هذا الخلل أيضاً فقدان آثار التأثير الرباني فالقاعدة أن: "المنح الربانية لمن يحسن إيمانه مثل الإلهام، وصدق الرؤيا، وصحة الفراسة والمحبة أو المهابة التي تلقى في قلوب الناس، فأين الإلهام المسدد ؟ وأين التفاؤل المحفز ؟ وأين التوفيق المتجدد ؟ وأين أولياء الله؟.. أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة "[2].

ولعل من أظهر الآثار الضعف في المواقف أمام الإغواء والإغراء، وفي وجه الشدائد والمحن؛ لأن من لا زاد له من الإيمان سريعاً ما يسقط في الامتحان.

"إذن لم يبق لنا إلا الطريق الأوسط الأقرب، طريق تلاوة القرآن، والصلاة واللبث في المساجد، وحلق الذكر، وتهجد الثلث

---

(١) د.عبدالرشيد صقر، أشواك في الحقل الإسلامي (٢٩).

(٢) أ.محمد أحمد الراشد، نحو المعالي (٢٧).

الأخير، وزيارة القبور، ومجالس العلم، وغدوة النهي عن المنكر إذا انطلق، وروحة أمر الأصحاب بالمعروف إذا آب، وعلى هذا دل الهدي النبوي الشريف، ومن لم تحلق به روحه إذ هو على حصيرة المسجد فلن يطير به السندباد"[١].

لا بد أن نعلن للدعاة أنهم إذا استكثروا من الزاد الإيماني فسوف تفتح لهم النفوس بعد إغلاق، وتفتح لهم قلوب الناس بعد إدبار، وتفتح لهم حصون العدو بعد امتناع، وأنه يجب أن يدرك جمهور الدعاة أنه ما فتح الله على عبد حالة سنية إلا باتباع الأوامر، وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب.

لابد أن نضع لكل الدعاة والعاملين للإسلام لافتة كبيرة تحمل عنوان التربية الإيمانية، وأن نكتب تحتها: (الطريق من هنا).



(١) أ.محمد أحمد الراشد، نحو المعالي (٣٣).

إلى البكاء أيها الأحباء!

البكاء، وما أدراك ما البكاء، إنه عمل لا يحتاج إلى علم كثير ولا إلى معارف متعددة ولا إلى فصول وأبواب، بل يحتاج إلى ما هو أبعد من ذلك، يحتاج إلى قلوب حية وأنفُس طاهرة وأرواح شفافة وإيمان نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنَّ به علينا.

ولماذا البكاء؟ وما حاجتنا إليه؟

أظن أن الجواب على هذا السؤال لا ينفك عن ذهن كل مؤمن، ولا يغيب عن بال كل مسلم، ولكن الغفلة والنسيان، والشهوة والطغيان كثيراً ما تحجب الحقائق وتقسي القلوب.

لما ذا الحديث عن البكاء؟

للحديث عن البكاء أسباب أجملها فيما يلي:

أولاً: طغيان المادة والشهوات، فلقد أخذ البدن حظاً أكثر من حقه طعاماً وشراباً وتنعماً وترفهاً وكل ذلك يطغى ويضغط على حظ الروح من زادها الإيماني وقوتها الرباني فلنبك إذن على أرواحنا وقلوبنا.

ثانياً: نحن في عصر كثرت فيه المآسي وتعددت النكبات: فَجَرَت دماء أهل الإيمان أنهاراً وارتفعت صرخاتهم إستغاثة واستنجاداً ودعاء لله سبحانه وتعالى وطلباً للفرج والنصر في بلاد الإسلام فلبنك إذن على أحوال إخواننا وبلادنا.

ثالثاً: نحن نعاني من كثرة ذنوبنا ومعاصينا حتى لم تعد لنا قدرة على إحصائها ولا معرفتها، ولم نعد نأبه بصغيرها لأننا نقع في كبيرها، وهذا أمر يدعو إلى أن يبكي الإنسان على نفسه، وأن يندب تقصيره في حق ربه.

القلب هو سر الإنسان، ولأن الروح هي جوهره، ولا يغذي هذه الروح ويحيي القلب إلا ماكان من المصدر الذي جاءت منه هذه الروح، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى** ﴾ [الحجر: ٢٩]، ومن لم يشرق قلبه بنور الإيمان، ولم تزك نفسه بزاد التقوى فإن حاله يدعو للبكاء، وأما من عمر الإيمان قلبه، وملأ اليقين نفسه، فإنه إنما يبكي من خشية الله.

رابعاً: حبيبنا وقدوتنا رسول الله ﷺ كان يبكي، وبكاؤه "لم يكن بشهيق ولا رفع صوت ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه ﷺ تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً لأمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية "[(١)].

والبكاء من خشية الله سمة للعبد المؤمن وصفة من صفات الإيمان التي تدل على زيادته وعظمته وحياته في القلوب، فسجود المحراب ومناجاة الأسحار ودموع الخلوة، هي خاصية يتميز بها المؤمن عن غيره.

فالعبد لا يبكي إلا من خوف يسأل الله الأمن منه، أو من بلاء وفتنة يرجو من الله البعد عنها، أو من عجز وبلاء يرجو من الله أن يرفعه عنه.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بالعبد المؤمن أنه يبتليه حتى يلجأ إليه ويتضرع إله، وليبكي بين يديه فيكون ذلك تكفيراً لذنوبه وإعلاء لمنزلته، وزيادة لإيمانه وإحياء لقلبه.

ونحن في هذه الأيام إلا من رحم الله نفتقد إلى الخشوع لله والاطراح والبكاء بين يديه سبحانه، فقد كثر نقلنا للعلم وحفظنا، ولكن قلّ خشوعنا وخوفنا من الله، وما ذلك إلا لأن العلم لم يكن على

---

(١) زاد المعاد ١/ ١٧٧.

النهج الأكمل، لأن العلم الصحيح يورث العبد الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]. وعندما سئل الشعبي عن العلم قال: " إنما العلم الخشية " وقد وصف ابن القيم خشوع الإيمان فقال: " هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمحبة والحياء ". فإذا خشع القلب تبعه خشوع الجوارح لا محالة.

فالخشوع حقيقة إنما هو خشوع القلب، ولما رأى ابن مسعود رجلاً مطأطئاً رقبته، منكساً رأسه، فقال: " يا صاحب الرقبة ارفع رأسك إنما الخشوع خشوع القلب ".

فليس المطلوب مظاهر جوفاء خالية من الصلة بالباطن، إنما المطلوب حقيقة للقلب وخشية مؤثرة في النفس، مشاعرتؤرق للإنسان ليله فلا يغمض له جفن، وتقض مضجعه فلا يطمئن له جنب، فينبعث لطاعة الله وسؤاله والتضرع إليه دوماً بالليل والنهار، ويغلب ذلك عليه فترى جِدّه أكثر من هزله، وبكاءه أكثر من ضحكه، وترى تعلقه بالآخرة أكثر وأطهر من نظره وتعلقه بالدنيا، وهذا هو الهدي الإيماني الذي ورثه لنا رسولنا ﷺ.

موارد البكاء

المورد الأول: البكاء عند تلاوة القرآن الكريم

القرآن كلام الرحمن، وفيه خطاب العقل والقلب والوجدان، وآياته تحرك المشاعر فتقشعر الجلود وتخشع القلوب وتدمع العيون،

وذلك عندما تدبر الآيات والتفكر في معانيها، وقد وصف الله كتابه وصفاً عجيباً فقال جل وعلا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر: ٢١] إن ما في هذا القرآن من الوعد والوعيد، وما فيه من التذكير والتخويف، وما فيه من وصف نعيم الجنة والشوق إليها، وعذاب النار والخوف منها كل ذلك كاف بأن يدك الجبال دكاً، فيصير الجبل الأصم منها متصدعاً متفتتاً من خشية الله لما جاء في هذا القرآن العظيم، فليبك المرء على حاله حينما تتأثر الجلاميد الصم، وتتأثر الكائنات الجمادية التي ليس لها روح ولا حياة، وهو لا يتأثر، الجبل يتصدع، والقلب لا يخشع.

وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((**اقرأ عليّ القرآن**)) فقال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك نزل! فقال: اقرأ فإني أحب أن أسمعه من غيري، فتلا ابن مسعود من أول النساء، حتى بلغ قول الله جل وعلا من سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[النساء: ٤١-٤٢]، فقال ﷺ: حسبك حسبك،

قال ابن مسعود فنظرت إلى رسول الله ﷺ فإذا عيناه تذرفان بالدموع. لقد عاش المصطفى ﷺ مع الآيات وتصور هذا المشهد العظيم الذي تكون الخلائق كلها محشورة بين يدي الله سبحانه وتعالى، ناظرة إليه ﷺ وهو شفيع الخلق يوم القيامة، فبكى عليه الصلاة والسلام لعظيم منة الله عليه ولعظيم تذكر هول ذلك اليوم وهول ذلك المطلع.

وتأمل سمة أبي بكر وصفته مع القرآن حيث تقول عنه عائشة لرسول الله: "يا رسول الله إن أبا بكر رجلٌ بكاء فإذا تلا القرآن بكى وبكى الناس لبكائه" الحديث. ومما أثر عنه لما كان في جوار رجلٍ من المشركين في مكة، كان يصلي في دويرية داره، يعني في داخل داره، فإذا تلا القرآن بكى فاجتمع النساء والصبيان والعبيد يبكون، فقال المشركون لهذا الرجل الذي أجار أبا بكر: "مر صاحبك أن لا يقرأ قرآنه فإنه يفسد علينا نساءنا وعبيدنا وإماءنا"، عندما يخلو المسلم في ليله بربه يناجيه تسرع إليه عبرته، ولأن أبا بكر كان لا يملك عبرته إذا تلا كتاب ربه رضي الله عنه.

المورد الثاني: البكاء في خلوة الليل

خنين عمر

هذا عمر الفاروق رضي الله عنه رغم شدته في الحق، ورغم قوته في القيام بأمر الله جل وعلا، كان إذا ذُكِّر بالله تذكر وإذا تليت عليه آيات

الله سبحانه وتعالى يبكيُ، وإذا تلا هو القرآن يبكي حتى يسمع له خنين تحققاً بقول الله جل وعلا: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾[الأنفال: ٢]، فكان رضي الله عنه في بكائه عجيباً لأنه كان يجمع بين الشدة والقوة في إحقاق الحق وإقامة العدل، والذلة والخضوع بين يدي خالق الخلق، ولذلك كان يقول: " إذا نمت في الليل ضيعت نفسي، وإذا نمت في النهار ضيعت رعيتي " فأسهر ليله وأتعب نهاره، وكان دائم التعلق بالله سبحانه وتعالى.

ومن أعجب ما ورد في البكاء ما رُوي عن علي رضي الله عنه إذ يقول في وصفه ضرار بن ضمرة الكناني: " فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومة يميل في محرابه قابضاً علي لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع إليه، ثم يقول للدنيا: إليّ تغررت، إليّ تشوفت، هيهات هيهات غُرِّي غيري قد بتتك ثلاثاً، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق "[١].

---

(١) حلية الأولياء ١/٤٤.

وكذلك ورد البكاء عن النبي ﷺ على وجه الخصوص في قيام الليل، كما ورد في الحديث الطويل عن عائشة تقول فقام وتوضأ ﷺ ثم صلى صلاته، وإذا أنا أسمع بكاءه حتى بلل موضع سجوده عليه الصلاة والسلام.

بكاء الخلوة في عتمة الظلمة بكاء ينبغي أن يكون شعاراً للعبد المؤمن، لأنه بكاء صادق لله سبحانه وتعالى، فقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، في شأن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ((**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**)).. ذكر الله خالياً من الخلق، خالياً من الرغبة والرهبة فيما عندهم، وحينئذ فاضت عيناه بالدمع الخالص النابع من خشية الله سبحانه وتعالى، وقد فقه أهل الإيمان هذا النهج وأحيوا ليلهم حتى يكون بكاؤهم خالصاً لله سبحانه وتعالى يقول أبو سهل الصعلوكي وكان من الزهاد:

أنام على سهو وتبكي الحمائم ... وليس لها جرم ومني الجرائم

كذبت لعمر الله لو كنت صادقاً ... لما سبقتني بالبكاء الحمائم

فبكاء الليل من أوسع الأبواب في البكاء لأن فيه الخلوة والمناجاة والندم والانكسار بين يدي الله عز وجل، وفيه الصلاة والسجود لله، وفيه تلاوة القرآن، وكل واحد من هذه الأبواب التي ذكرناها باب من أبواب الخشية لله والبكاء له سبحانه وتعالى، كلها تجتمع في تلك الأوقات المباركة،

ولـذلك قـال سـبحانه وتعـالى في شـأن وقـت العبـادة في وصـف المـتقين :

﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨].

وجاء في حديث النبي ﷺ : ((**أفضل القيام قيام داود ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**)) ، ومن ثم كان قيام الليل هو الزاد الأمثل للرعيل الأول بقيادة الرسول الأكمل حينما كلف بالدعوة ، وقد كان فرضاً على أصحابه عاماً كاملاً في مكة ، فكان وقود قيام الليل هو الذي أحيا قلوبهم وأجرى دموعهم وقوَّى إيمانهم ، وانطلقوا بعد ذلك في نهارهم يعمرون الكون بأمر الله ، ويركبون خيولهم جهاداً في سبيل الله ، وصدقوا حينئذ ما عاهدوا الله عليه ، لأنهم أخلصوا فيما بينهم وبين ربهم ، وقيل للحسن البصري رحمة الله عليه : ما بال أهل الصلاح على وجوههم النور ؟ قال : خلوا إلى ربهم فكساهم من نوره.

المورد الثالث : خشية الله عز وجل والخوف من عذابه :

جاء في الحديث عن ا لنبي ﷺ عند الترمذي : ((**عينان لا تمسَّهما النار عينٌ بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله**)) هذه الخشية هي التي تجعل الإنسان يترك المعصية والشهوة وهو عليها قادر ، لا يرده عن ذلك إلا الخوف من الله ، ولا يردعه عن ذلك إلا الحياء من الله ، وقيل لبعض السلف ما علاج غض البصر ، قال : "علمك بأن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما حرم عليك "

المورد الرابع: الرحمة والشفقة

هذا مورد لا يعرفه أصحاب القلوب القاسية من الطغاة المتجبرين الذين يؤذون ويعتدون ويعذبون ويقتلون هؤلاء هم الذين تبلدت أحاسيسهم وختم على قلوبهم، فلا تنزل من أعينهم دمعة لأنه ليس في قلوبهم رحمة.

ولكن رسولنا وقدوتنا ﷺ صاحب القلب الرحيم عندما كان يشهد إحتضار حفيدته بنت زينب رضي الله عنها بكى ﷺ وذرفت عيناه رحمة وشفقة، وقال ﷺ: ((**الراحمون يرحمهم الله**)).

وعن أنس — في وصف وفاة إبراهيم ابن الرسول الكريم ﷺ قال: دخلنا عليه وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال عبدالرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟، فقال: يا بان عوف إنها رحمة ثم اتبعها بأخرى فقال: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"[١].

المورد الخامس: الخوف الموت

كان من دأب السلف أنهم إذا رأوا شيئاً من الدنيا يذكرهم بالآخرة تأثرت قلوبهم وذرفت عيونهم، وكان ذكر الموت وانقضاء

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١٣٠٣).

الدنيا والإقبال على الآخرة من أعظم ما يستولي على قلوبهم ويشغل بالهم ويسهر ليلهم ويجري دموعهم فقد

وروي عن سفيان الثوري أنه مرَّ على حدادٍ فرأى شرَر النار فجعل يبكي وعاده الناس شهراً في بيته، لأنه تذكر عذاب الله جل وعلا.

وحكي عن محمد بن واسع من السلف رضوان الله عليهم، أنه كان يبكي حتى يرحمه الناس، فذكر له في ذلك، يعني لماذا هذا البكاء؟ فقال "يا أحَّبائي كيف لا يبكي من لا يدري ما أُثبت في كتابه، ولا يدري ما يختم به كتابه".

فإن كان هذا حالهم وهم على علم غزير وعمل صالح كثير وتجنب للمعاصي كبير فكيف بحال من كان مسرفاً على نفسه في ارتكاب المعاصي والمنكرات، مع تقصيره في الطاعات.

المورد السادس: البكاء على الذنوب والمعاصي

المؤمنون الصادقون إذا عملوا الذنب اليسير الهين الذي لا يُلتفت إليه ندموا وخافوا فجرت لذلك أدمعهم، ورفعوا بالدعاء أكفهم، وأخضعوا بالذل جباههم، وحركوا بالاستغفار ألسنتهم، كما وصف الله المحسنين الذين يرجعون إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

إذا ألم بك الشيطان فوقعت في المعصية فسارع إلى بكاء الندم، والتوبة والإستغفار لله سبحانه وتعالى، وكذلك وصف الله المحسنين بأنهم: ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٣٥]، ولما سُئل سعيد بن جبير أيُّ الناس أعبد؟، لم يقل أكثرهم صلاة ولا أكثرهم صوماً، وإنما قال: "رجل اجترح ذنباً فكلما ذكر ذنبه استغفر ربه" وهكذا العبد المؤمن كما ورد من قول ابن مسعود في الصحيح: "إن المؤمن يرى الذنب كجبل يوشك أن يقع عليه".

المورد السابع: البكاء على حال المسلمين

وهو بكاء يتقطع منه القلب وتسكب لأجله العبرات، حينما يرى الإنسان المؤمن حال أمة محمد ﷺ وما آلت عليه من الفرقة والخلاف، وما انحدرت عليه من الذل والهوان، وما تقع عليها من اعتداء الطغاة والمتجبرين، ويسمع من إخوانه المسلمين الصرخات والصيحات التي تستغيث بالله سبحانه وتعالى وتطلب النصرة من المؤمنين ولا تجد لها مجيباً ولا سامعاً، كل ذلك يحملُ النفس الهمَ، ويورث القلبَ الحزن، ويجري دمع الأخوة فمثل هذه المشاهد ينبغي أن تثير في نفس المؤمن الحزن والكمد فيبكي ولكنه ينبغي ألا يكون بكاؤه بكاءَ عجزٍ ويأس وإنما بكاء تأثُّر يدفع إلى العمل.

المورد الثامن: البكاء على فوات الطاعة

إنه بكاء فريد مختص بالطائعين وهو البكاء على عدم القدرة على عمل الطاعات، وتذكر لنا كتب السيرة البكّائين الذين جاءوا في أثناء الاستعداد لغزوة تبوك ليحملهم النبي ﷺ على البغال أو على الجمال ليشاركوا في الجهاد، لأي شيء يذهبون؟ وأي شيء جاءوا يطلبون؟ إنهم يريدون الجهاد لتزهق أنفسهم في سبيل الله، فاعتذر لهم النبي ﷺ وأمة الإسلام كلها في ذلك الوقت لم تجد ما تحملهم عليه، فهل قالوا هذا تيسير وفرج وهذا عذر لنا وفرحوا بهذا كلا، فقد جاء وصفهم في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة: ٩٢].

واقرأ معي قول أبي بكر أحمد بن إسحاق: "أدركت إمامين لم أرزق السماع منهما، أما أحدهما فأبو حاتم الرازي، والآخر محمد بن نصر المروزي: ما رأيت أحسن صلاة منه، وكان يبكي على فوات الخير".

وإليك مثل سفيان بن عيينة، إذْ أتاه سائل يعني يطلب منه أن يعطيه شيئاً فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى سفيان رحمه الله فقيل له: يا أبا محمد ما الذي أبكاك، قال: أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه.

وذات يوم مرض عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه فعاده بعض أصحابه فجعل يبكي فعوتب في ذلك فقال: " إني لا أبكي لأجل المرض، لأني سمعت رسول الله ﷺ المرض كفّارة، وإنما أبكي لأنه أصابني على حال فترة، ولم يصبني في حال اجتهاد، وذلك لأن النبي ﷺ يقول: ((**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**))[1]، فلما أعاقه المرض عن عبادة محدودة بكى على ما فاته من الأجر.

ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى بكت أم أيمن وعندها أبو بكر وعمر، فقالا لها: ما يبكيك أما تعلمين أنما عند الله خير لرسوله، قالت: إني لا أبكي، وإني أعلم أنما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكني أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها.

المورد التاسع: البكاء خوف الفتنة بالدنيا:

البكاء من خوف الدنيا أن تبسط على الإنسان وتفتنه عن عبادة ربه وتشغله عن صلته وتعلقه بالآخرة.

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٢٩٩٦).

وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حين أتي بطعام وكان صائماً وطعامه كان في إفطاره أكثر من صنف من الطعام فبكى رضي الله عنه وقال: قُتِل مصعب بن عمير وهو خير منِّي، فلم يوجد له ما يكفن به إلا بُرْدة إن غُطِّيَ بها رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّيَ بها رجلاه بدا رأسه، ثم أعطينا من الدنيا ما أعطينا، قد خشينا أن تكون عجلت لنا حسناتنا"، ثم جعل يبكي رضي الله عنه حتى ترك الطعام.

من فضائل وفوائد البكاء

الفائدة الأولى: ظل البكاء

البكاء سبب من أسباب دخول العبد في ظل الله يوم القيامة فيكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، (رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه).

الفائدة الثانية: قطرة محبوبة

قطرة الدمع محبوبة لله سبحانه وتعالى، كما أخرج الإمام الترمذي في حديث حسنه عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي عن النبي ﷺ: ((**ليس شيء أحب إلى الله سبحانه وتعالى من قطرتين وأثرين، قطرة دمع من خشية الله وقطرة دم تهراق في سبيل الله وأما الأثران فأثر في سبيل الله أي في الجهاد، وأثر في فريضة الله سبحانه وتعالى**)) إنها محبوبة لأنها دليل

العبودية والذلة بين يدي الله ، والله سبحانه وتعالى يحب أن يسأله عباده بل دعاهم لسؤاله ودعائه والتذلل بين يديه سبحانه وتعالى.

الفائدة الثالثة : النجاة من دخول النار

إن البكاء من أسباب النجاة من عذاب النار كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : ((**لا يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**))[1].

من عجائب البكاء

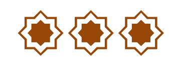
وإذا كنا لا نبكي ولا نتأثر فإن الجمادات تتأثر وتبكي وتحن وذلك بإخبار نبينا ﷺ ، كما ورد أنه اهتز جبل أحد فقال : ((**أحد جبل يحبنا ونحبه**)) وحنَّ إليه الجذع حتى سمع حنينه في المسجد حتى عمد إليه النبي ﷺ ووضع كفه عليه فسكن ، وورد في الصحيح أن ناقته ﷺ حنَّت إليه وذرف دمعها ، ويقول الله سبحانه وتعالى في شأن الكافرين والجاحدين ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ** ﴾[الدخان : ٢٩]، ذكر ابن كثير في تفسيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " إذا مات

---

(١) رواه الإمام الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

ابن آدم بكى له موضعان موضع عمله في الأرض، وموضع مقعد عمله في السماء" فاستشهد واستنطق الأرض والسماء بالعمل الصالح والطاعة لله سبحانه وتعالى.

هذا هو البكاء وتلك هي موارده وفوائده، فهل نجعل لأنفسنا نصيباً منه عسى أن يظلنا الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله. نسأل الله تعالى من فضله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



أنوار القرآن وخفافيش الظلام

القرآن كله أنوار ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وما أشد الحاجة إلى النور الرباني ليبدد الظلام الشيطاني! وما أعظم الافتقار إلى أنوار الهداية لتزيل ظلمة الغواية! سيما في مثل هذا العصر الذي تحالفت فيه ظلمات الشهوات التي بلغت مبلغاً فاق التصورات مع ظلمات المذاهب الفكرية والمبادئ العقدية المنحرفة التي أوغلت في نقض وتشويه حقائق الإيمان، مع ظلمات الظلم الذي يصمّ الأذان، ويملأ الأبصار كل ليل ونهار ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولـك أن تتصـور - عزيـزي القـارئ - حالـة مـن يسـير في وسـط الظـلام الـدامس، إن العثرة ترافقـه في كـل خطـوة، والخـوف يمـلأ قلبـه مـع كـل خفقـه، والحيرة تشـغل عقلـه مـع كـل فكـره؛ لأنـه يقـدم نحـو المجهـول ولا يعـرف المخـاطر الـتي تنتظـره فضـلاً عـن أن يـدرك أبعادهـا ويحدد حجمها أو أن يستعد لها.

إن مثل هذا السائر يتلهف إلى بصـيص مـن نـور، يقيـل عثرتـه، ويبـدد حيرتـه، ويـذهب مخافتـه.. إن الشـعاع الضـئيل بالنسـبة لـه كنـز، وتأمل تصوير القرآن الكريم لهذه الحقيقة وتلـك الحالـة في قولـه تعـالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعـام: ١٢٢]، وكـذلك في قولـه جل وعلا: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾[البقرة: ٢٠].

إن مـن النـاس فئـة ألفـت الحيـاة في الظـلام وصـار النـور يعشـي أبصارها ويؤذي بصائرها، وهؤلاء يحرصون على الظلمة؛ لأنها تخفي عـوراتهم، وتغطـي عثـراتهم.. وتبقـي علـى سـواد قلـوبهم وفسـاد نفوسـهم، ولـما كـان القـرآن هـو النـور السـاطع والضـياء اللامـع؛ فـإن قلوب هؤلاء وعقولهم صدت ولا تزال تصد عنه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت: ٢٦].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥]، وليس هذا مقصوراً على الكفر القديم أو الجاهلية الأولى، بل هو اليوم أظهر وأشد، فالملحدون من أذناب الفكر الشيوعي اللاديني يرفضون القرآن؛ لأن من أنواره قول الحق جل وعلا: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

والقوميون - على اختلاف مشاربهم وتنوع أسمائهم - يبطل القرآن دعوتهم القومية بالأخوة الإيمانية لأن قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] يعري دعوتهم.

والرأسماليون يقدسون المادة ويخالفون قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والعلمانيون الخُلَّص يغصّون بضرورة تحكيم شرع الله كما في قوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقس على هؤلاء وأمثالهم من جنحوا عن الحق وحادوا عن الصواب، وتفرّغوا لحرب القرآن وطمس أنواره ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

ولأنهم لا يعرفون القرآن؛ فإنهم لم يقفوا على هذه الآية والحقيقة الخالدة التي تصوّرهم وتصوّر عداءهم المرير بصورة مضحكة يقربها لك –عزيزي القارئ– قول الشاعر:

قل لي بربك هل تطيق ذبابة حجبٍ لنور الشمس وهو البادي.

أما المؤمن الصادق والمسلم الحق فيدرك أن نور القرآن أعظم شيء في الوجود.. به يعرف الدنيا ويبصر الآخرة، ومن خلاله يعرف الحق من الباطل ويقوِّم الأشخاص ويحكم على الآراء ولذا فهو به مستمسك وعليه حريص ولكن بعض المسلمين لم ينتفعوا بكل أنوار القرآن، وبعضهم ربما ترك بعض تلك الأنوار وسمح لظلمات الجاهلية أن تدني مستوى وضوح الرؤية لديه فترى كثيرين غابت عنهم حقائق قرآنية، وآخرين فقدوا أخلاقاً قرآنية.

ونحن نحتاج أن نقتبس كل مرة بعض الأنوار من بعض آيات القرآن ليشرق صبح الحق في حياتنا، وتسطع شمس الهدى في آفاقنا، وتأنس أبصارنا وبصائرنا بالضياء وتنتفع به وتعشى عيون خفافيش الظلام.



القرآن الكريم من التدبر إلى التأثر

القرآن الكريم نور البصائر، وهداية العقول، وطمأنينة القلوب، وشفاء النفوس، ولكي يحقق القرآن في الأفراد آثاره، ويؤتي في الأمة ثماره، فإنه لابد من أمرين أساسين، حسن الفهم له، وقوة اليقين به.

أولاً: حسن الفهم

قال ابن تيمية: "حاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن"، والفهم الصائب أساس العمل الصالح، وإذا لم يتحقق حسن الفهم فإنه لا مناص من أمرين: الحيرة والاضطراب وعدم العمل، أو العمل على أساس منحرف أو مختل لا يوصل إلى الغاية المنشودة والنهاية المحمودة.

الطريق إلى حسن الفهم:

لكي نصل إلى حسن الفهم فلنأخذ بهذه الخطوات:

أ- حسن الصلة:

كيف يفهم القرآن من يهجره ولا يقرؤه؟، وأنّى لمن ترك تلاوته والاستماع إليه أن يفقهه؟ ومن هنا لا بد من:

❖ كثرة التلاوة: وهو أمر رباني قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

❖ تجويد التلاوة: بمعرفة الأداء الصحيح بالتلقي والمشافهة لأن النبي صلى اله عليه وسلم قال: ((**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة**))[١].

❖ حسن التلاوة: وذلك ورد الأمر به في قوله تعالى: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وقال النبي ﷺ: ((**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**))[٢].

❖ الإنصات للتلاوة: وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

❖ التأني في التلاوة: وقد ورد ذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: " لا تهذوا القرآن هذاً كهذّ الشعر، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة ".

---

(١) صحيح البخارى حديث رقم (٤٩٣٧).

(٢) صحيح البخارى حديث رقم (٧٥٢٧).

❖ حسن التدبر: والمراد بالتدبر تفهّم المعاني وتأمل المقاصد ليحصل الاتعاظ ويقع العمل، وهو أمر مهم جعله الله مقصداً أساسياً لنزول القرآن فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [صّ: ٢٩]، ومدح الحق جل وعلا من تدبر وانتفع، فذكر من صفات عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣]، وذم الله عز وجل من ترك التدبر فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، والتدبر من النصح لكتاب الله الذي أمر به رسول الله ﷺ، وفي سياق بيان معنى النصح لكتاب الله عدّ النووي التدبر من ضمنه فقال: "والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله".

وحسن الصوت معين على التدبر، فهذا ابن كثير يقول في الترتيل: "المطلوب شرعاً إنما هو تحسين الصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه"، والنووي يقول: "الترتيل مستحب للتدبر وغيره"، فمن أدام الصلة بالقرآن تلاوة وتجويداً وتحسيناً تيسر له الانتفاع بالقرآن تدبراً وتفكراً، قال ابن باز عن قارئ القرآن: "ينبغي له أن لا يتعجل، وأن يطمئن في قراءته، وأن يرتل...المشروع للمؤمن أن يعتني بالقرآن

ويجتهد في إحسان قراءته، وتدبر القرآن والعناية بالمعاني ولا يعجل"، والعكس صحيح فالقراءة السريعة بعيدة كل البعد عن التدبر كما قال القرطبي: " لا يصح التدبر مع الهذّ".

والاستماع الواعي له أعظم الأثر في التدبر والتأثر، وقد كان الفاروق رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: " يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون ".

وهذا أعظم تأثيراً في القلب كما قال ابن القيم: " فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن والتدبر".

وقد جمع الأمران (حسن الصلة وحسن التدبر) في حديث النبي ﷺ: **((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده))**.

ثانياً: قوة اليقين:

لابد من الاعتقاد الجازم بكل ما في القرآن من الأخبار والحقائق، والإيمان بكمال ما فيه من الأحكام والشرائع، وصدق ما فيه من الوعد والوعيد، والتسليم بما فيه من الحِكم والسنن، وذلك

كله بيقين راسخ يقتنع به العقل، ويطمئن به القلب في سائر الأماكن والأزمان، وفي كل الظروف والأحوال.

وأبرز ما ينبغي الإيمان واليقين به كبريات الحقائق المتصلة بالقرآن ومنها:

أ- الكمال المطلق:

اليقين بأن ما في القرآن من العقائد والشرائع والأحكام والآداب هو الكمال الذي لا نقص فيه، وهو الذي تتحقق به السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهو الذي يلبي الاحتياجات، ويحل المشكلات، ويعالج المستجدات، فالله جل وعلا قال﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وفي كل ميدان ومجال نجد القرآن يقدم الأكمل والأمثل والأفضل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ب- الشمول التام:

فاليقين لا بد أن يكون جازماً بأن القرآن شامل شمولاً عاماً، فهو بالنسبة للفرد يخاطب عقله وروحه وجوارحه، وهو لا يقتصر على العناية بشأن الآخرة دون شأن الدنيا، ولا ينحصر في شعائر

العبادة دون تنظيم شؤون المعاملات، وإحكام نظام القضاء والمرافعات، وأسس السياسة وقواعد الاجتماع إلى جميع شؤون الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال جل وعلا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ج- السنن الماضية:

اليقين بأن ما في القرآن من السنن الإلهية التي فيها ذكر أسباب القوة والضعف، والنهوض والسقوط، والصلاح والفساد أنها كما أخبر الله بها لا تتغير ولا تتبدل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وهذه السنن هي المنطلقات الأساسية في معرفة الأحداث وتحليل النتائج كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وإذا وجد حسن الفهم، وقوة اليقين تحققت البداية الصحيحة للانطلاقة الإيجابية لتغيير واقع الأمة وتربية نشئها وصناعة أجيالها.

والمتأمل في عموم أحوال المسلمين يستطيع أن يقول: إن من أعظم أسباب الزيغ في الفكر، والقسوة في القلب، والانحراف في السلوك،

وعدم التأثر بالقرآن، ضعف أو انعدام الصلة به، وعدم أو سوء الفهم له، وقله أو ضعف اليقين به، ولقد كان القرآن في حياة الأمة قلبها النابض، ولسانها الناطق، وحُكمها القاطع، ومرجعها الدائم، كان دوّيه يتردد في محاريب المساجد في الصلاة، وعلى صهوات الجياد في الجهاد، وكان حفظه وفهمه والعمل به هو جوهر الإسلام وحقيقته، ومن ثم تعلق به الصحابة حتى قال ابن مسعود: " ما من آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، وفيمن نزلت، ومتى نزلت، وهل نزلت بليل أو نهار أو بسفر أو حضر، ولو كنت أعلمُ أحداً أعلمُ مني بكتاب الله تضرب إليه أكباد الإبل لرحلت إليه"، فها هي الصلة وطيدة بكل شيء متعلق به، أما العلم والعمل فها هو عبد الرحمن السلمي يخبرنا فيقول: " كان الذين يقرؤوننا من أصحاب رسول الله ﷺ لا يتجاوزون بنا العشر من الآيات حتى نعرف ما فيها من العلم والعمل فتعلمنا العلم والعمل معاً ".

نعم ذلك هو جيل القرآن جيل التلقي للتأثر، جيل العلم والعمل، جيل الدعوة والتعليم، والصحوة والدعوة لن يتم لها مرادها ولن تبلغ مقاصدها وهي بعيدة عن منبع الهدى، فهل من صلة دائمة ؟ وهل من عودة صادقة ؟ وهل من معرفة واعية ؟ لا مناص من ذلك إن أردنا الخير والفلاح.



ربانيون لا دنيويون (١/٢)

انقضَّتْ الدنيا بشهواتها وشبهاتها، وأجلبت الشياطين بخيلها ورجلها، وتوجَّهتْ سهام وسيوف الأعداء بحدها ونصلها، وأحيط بالمسلمين من كل جانب، عقيدتهم مستهدفة، ووحدتهم مقصودة، وشريعتهم محاربة، سيل من الإغواء والإغراء، وأصناف من الأذى والابتلاء، إنها الدنيوية التي تجيء ترغيباً وترهيباً، والتي تجيء فتنة ومحنة، والتي تتنوع شبهة وشهوة.

ويظهر السؤال: ما المهرب وأين الملجأ؟ وكيف تكون العصمة منها؟

العصمة لا تكون إلا في الربانية، نعم الربانية عصمة من الدنيوية، فهي ليست انقطاعا عنها، ولا انبتاتاً منها، ولا تحريما لها، وإنما هي سياسة الدنيا على منهج الله، استعلاءً عليها وترفعاً عنها، وانتفاعاً بالمباح منها، وحصانةً من أضرارها، وسلامةً من شرورها، وأمناً من ضلالها وزيغها، الربانية هي أشد ما نفتقر إليه، وهي ما

أرشدتنا إليه آيات القرآن وجسدته لنا سيرة المصطفى ﷺ، بها تتحقق السلامة في الدنيا, وترجى النجاة في الآخرة.

كثير من المفاهيم - في دنيا الناس - انعكست، وكثير من الموازين انقلبت، ويرى المسلمُ المحرمَ القطعي، ويجد من يسميه رقياً وفناً وانفتاحاً، تلاعب بالمصطلحات يغير الحقائق والتشريعات، فالخمر مشروبات روحية، والربا فوائد تجارية، وهكذا بالبعد عن الربانية اختلطت الآراء، وزلت الأقدام، وضلت الأفهام، وحارت العقول، وصار كثير من الناس في حيرة يلتمس الطريق الذي يسلكه، والحبل الذي يستمسك به، ولا سبيل له ولا طريق إلا في الربانية.

فما هي الربانية وما هو سبيلها؟

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال البقاعي رحمه الله: "﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ تابعين طريق الرب، منسوبين إليه بكمال العلم المزين بالعمل، فإن فائدة الدرس العلم، وفائدة العلم العمل، ومنه الحث على الخير والمراقبة للخالق".

البعض يفخر بنسبته إلى قبيلته ويجتنب ما يدنس شرفها أو ينقص فخرها، فكيف إذا انتسبت إلى الله سبحانه وتعالى فكنت ربانياً كيف ترضى أن تدنس شرف هذا الانتساب بأوحال الدنيوية الشهوانية بارتكاب المعاصي والمخالفات؟

قال الحلبي: "الرباني منسوب إلى الرب بمعنى التربية، وذلك أن العلماء يربون العلم، أي يصلحونه ويتعلمونه، ثم يربون الناس به فيعلمونهم كما تعلموا، ويصلحونهم كما صلحوا هم به".

فالرباني هو الجامع بين العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله وتقواه، الحريص على تعليم وتربية الخلق بما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

تلك هي الربانية، أن تكون مع الله تعلماً لكتابه، ومعرفةً لذاته وأسمائه وصفاته، وعملاً بأحكامه وشرائعه، ودعوةً إلى دينه وسبيله، وقيادةً للحياة كلها على منهج الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ، لا تنسلخ في سياستها لتكون صورة من صور النفاق، ولا تنسلخ في معاملاتها لتكون عابدة للدرهم أو الدينار، ولا تنسلخ في حياتها الاجتماعية لتكون من أهل الفساد والفجور.

مقومات الربانية:

١- الصلة بالله عز وجل، فالرباني منسوب إلى الرَّب، أيقظ هذا الحس في وعيك، أشغل به فكرك، وعلق به قلبك وسدد بآيات القرآن قولك وفعلك، هذه الصلة العظيمة التي تجعلك من الأقوياء بالله، الثابتين الصابرين الموقنين بتأييد الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] وقال تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

٢- التعلق والتعلم لكتاب الله عز وجل، وهو باب العلم الحق المبصر بكل حقائق الوجود والخلق، هو شفاء القلوب يسكّن الشهوات ويدحَض الشبهات، وينير الظلمات، فارجع إلى كتاب الله، تدبر آياته، رطب به لسانك، وأنر به قلبك، واشرح به صدرك، واهد به عقلك، وهذب به خُلُقك، وزد من الصلة والتعلم والقرب والتأثر، فليس ثمة كتاب ولا علم ولا نهج أكمل ولا أوفى ولا أشفى ولا أروى من كتاب الله سبحانه وتعالى.

٣- التحقق والامتثال لأمر الله، فلا بد بعد العلم من العمل، فاحرص ألا تقتصر على مجرد الإتيان بالفرائض، بل استزد من كل

مـا يقـرب إلى الله ويحبـب إليـه مـن النوافـل والمنـدوبات، والسـعي إلى المنافسة في الخيرات، ففي الحديث القدسي (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الـذي يبصر بـه، ورجلـه الـتي يمشـي عليهـا، ويـده الـتي يـبطش بهـا، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه)[١].

٤- الـدعوة إلى المـنهج الربـاني والتربيـة عليـه: وهـو مـنهج النبي ﷺ، فهـو القـدوة العظمـى في شـتى جوانـب الحياة، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥- الإصلاح والتوجيه لشئون الحياة، فليست الربانية محصورة انعـزالاً في المسـجد، ولا بكـاءً في المحـراب، ولا تضـرعاً في السـجود، ولا صياماً في الهواجر، هـي ذلـك كلـه، وهـي قيـادة السياسـة، وتنمية الاقتصاد، وحـل المشـكلات، وعـلاج الأدواء، هـي صـبغ الحيـاة كلـها بصـبغة الربانيـة، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ

---

(١) رواه البخاري حديث رقم (٦٥٠٢).

عَـٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨] لتكون الحياة ماضية بروح الإيمان، **محلاة** بزينة الخلق الفاضل والسلوك المستقيم.



ربانيون لا دنيويون (٢/٢)

الربانية قوة للفرد يواجه بها الصعاب، ويستعلي بها على الرغاب، وأمتنا إن عادت ربانية فإنها ستكون قادرة على التأثير في أمم الأرض والتفوق عليها والأخذ بيدها إلى الطريق القويم، فلنمض إلى الربانية، وهذه خطواتها:

الخطوة الأولى: المجاهدة

قال ابن القيم رحمه الله:

"مجاهدة النفس أربع مراتب، أولها مجاهدتها على تعلم الهدى والصلاح -أي من كتاب الله وهدي رسوله ﷺ-، ثم أن يجاهد نفسه على العمل به بعد علمه، ثم الدعوة إليه، ثم الصبر على ذلك" وهل الربانية إلا تعلم وتعليم وعمل، وكل ذلك يحتاج لصبر ومصابرة.

الخطوة الثانية: فبهداهم اقتده

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل: ١٢٠-١٢١].

هذا نموذج رباني عظيم لنبي كريم هو أبو المسلمين إبراهيم الخليل عليه السلام، كان أمةً، أي إماماً يقتدى به في الخير، لأنه كان عالماً عاملاً، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ وتلك هي سمة العبودية، خشوع وخضوع، وتضرع وتقرب لله سبحانه وتعالى، ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، عن الباطل إلى الحق، عن الشر إلى الخير، وهكذا في كل جانب من الجوانب، ﴿شَاكِرًا﴾ لأنعم الله، وشكر النعمة أداء حقها وواجبها بنشر أثرها بين الناس، دعوة وتبصيراً لهم.

الخطوة الثالثة: الوقاية والحماية

كثيرة هي الشبهات التي تغزو القلوب والعقول وتزيغ الآراء والأفكار، وكثيرة هي الشهوات التي تغري النفوس وتثير الغرائز وتوقع في الانحراف، وطريق الربانية يقتضي البعد عن كل ما حرم الله، فلكي تكون ربانياً لابد أن تكون مبتعدا عن مقدمات المحرمات كما هو منهج القرآن، عندما خاطبنا بالنهي عن فاحشة الزنا قال:

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ لم يقل ولا تزنوا، كيف يمكن أن نكون ربانيين والعيون مسرحة الطرف في هذه الشاشات تبصر تلك العورات وترى تلك الإغراءات، كيف يمكن أن تكون ربانيا ولسانك ناطق بالباطل وهادر باللغو. يقول ابن القيم رحمه الله في شأن الرباني عموما، قال:

"هو من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله سبحانه وتعالى في عمله، ثم أخلص له في قصوده ونياته، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته، ثم دعا إلى الله على بصيرة بدينه وآياته".

الخطوة الرابعة: الصحبة الربانية

الله عز وجل يقول: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ والصيغة في الأمر جماعية، ليكون التوجه أن نكون بيئة ربانية، وأن تكون بيئتنا إسلامية، فنجعل بيئة بيوتنا ومجتمعنا تسير على النهج الرباني، وإلا نفعل فسنجد الغزو في عقر دورنا، عبر الفضائيات والشبكات، التي فيها من الانحرافات والضلالات ما ينحر الربانية ويقضي عليها.

ونحن اليوم في زمن الشهوات والشبهات، والمحن والفتن العاصفة، من تعرض لها أوشكت أن تهلكه ومن اقترب منها أوشكت بنيرانها أن تحرقه.

الخطوة الخامسة: الترفع عن الدنيا والتطلع للآخرة

إن الارتباط بالدنيا ميلاً إليها وانشغالاً بها وتعلقاً واهتماماً ورعاية وموافقة ومسايرة لها كل ذلك خلاف نهج الربانية فالله سبحانه يقول: ﴿ **وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ** ﴾ [القصص: ٧٧]

وقد صور لنا القرآن حال بعض الأمم السابقة التي انحرفت عن منهج الربانية، قال تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾[الأعراف: ١٦٩].

﴿ **فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ** ﴾ من بعد الربانيين المؤمنين الدعاة المخلصين ﴿ **خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ** ﴾ الشرع والدين، لكن ﴿ **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ** ﴾ يميلون مع الدنيا، قال ابن عطية في معنى العَرَض: "الرشا والمكاسب الخبيثة، يميلون بها مع مقتضى الدنيا

وإن خالفت أمر الله، يغلبون بها هواهم وشهوتهم ومطمعهم ولذتهم، ويؤخرون منهج الله وحكمه وشرعه".

وذلك هو الأمر الخطير وليته كان كذلك فحسب، بل معه الغرور والاغترار، معه الفتنة والزيغ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، قبل أن يفعلوا الفعل يحكمون بالمغفرة ويقطعون بها، وهم يصرون عليها، وإصرارهم يدل عليه قوله: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ يتكرر الأمر ثانية وثالثة كما نرى في واقع الناس اليوم، ألا نرى الاقتصاد وهو يغرق في الربا، ويزيد من القمار، ويكثر لهاث الناس نحو الماديات حتى أصبح الناس كأن لا هم لهم إلا هذه الدنيا.

ولذا جاء التحذير والتنبيه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وكأنهم بفعلهم هذا يقولون الباطل وينسبونه إلى الله، يقولون نحن مسلمون ويخالفون إسلامهم، يقولون نحن مؤمنون ويخالفون إيمانهم، يضلون الناس بأفعالهم ويغوونهم بمقالاتهم وما يلبسونه على الباطل من لباس الحق، وما يزينون به الشر من مظاهر الخير، باستخدام كثير من الحيل والوسائل الإعلامية والمغالطات الاصطلاحية التي ضجت بها دنيانا اليوم حتى لم يعد الناس يفرقون بين الحق والباطل إلا من رحم الله.

قال السعدي في تفسيره: "فما بالهم يقولون عليه - أي على الله سبحانه - غير الحق، اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم، والحال أنهم درسوا ما فيه — درسوا هذا القرآن أو درسوا ذلك الكتاب - قال في تفسيره: أي أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، أضلهم الله على علم".

ويقول كذلك: "وهذا أعظم الذنب - أي المخالفة مع العلم - قال: وأشد اللوم، وأشنع العقوبة وهذا من نقص عقولهم وسفاهة رأيهم بإيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة".

جزاء البعد عن الربانية:

إذا خرجت من ثوب الربانية، وابتعدت من ظلالها، ماذا سيكون حالك؟ وما هو مثلك؟ وأي صورة يرسمها القرآن لك؟

اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٨] هذا هو التصوير، إما نور الربانية والتدين تبصر به الحق وتميز به بينه وبين الباطل، وترى به حقائق الأشياء في ضياء الإيمان وبصيرة الهدى، وإما ارتكاس وضلال وانتكاس، ومع الربانية لا حرمان من متعة الدنيا المباحة، ولا مصالحها النافعة لكن دون تعلق يجعلها أوكد الهم وأعظم الشغل، وتكون به محور الحياة التي يدور حولها ويرتبط بها.

نسأل الله عز وجل أن يبصرنا بديننا، وأن يجعلنا به مستمسكين وعليه ثابتين وباقين إلى أن نلقى الله رب العالمين.



الكنز المفقود

كنْز غالي الثمن، بل لا يوجد ما هو أغلى منه، القلوب به متعلقة، والنفوس إليه متشوقة، والعقول فيه مفكّرة، والبشر عنه يبحثون، وإليه يلهثون وفيه يتنافسون، ولكن كثير من الناس منه محرمون، وعنه بعيدون، فما هو هذا الكنز المفقود ؟

كل إنسان يفتش عن الطمأنينة المستقرة والراحة المستمرة؟ أليس كل أحد يرغب في أن يملأ السرور قلبه، وأن تغمر البهجة نفسه وأن تعلوا البسمة وجهه؟

إلى كل الباحثين عن السعادة أقول: إنها تنبع من الداخل، ولا تستجلب من الخارج.

إن منبع السعادة في هذا الدين العظيم، يشعر بها المؤمن الصادق والمسلم المخلص صاحب الكلمة الذاكرة والدمعة الخاشعة والجبهة الساجدة... إنه المؤمن الموصول بالله.

إن اللـذة والسـعادة تكمـن في الإيمـان، والسـعي لنيـل رضـى الـرحمن، وعبـادة الملـك الـديّان. فلننظـر إلى هـذه اللـذة التي ذاقهـا المؤمنـون، وعلّمهـا للنـاس الأنبيـاء والمرسـلون، واقتطـف ثمارهـا وتمتع بأذواقها عباد الله الصالحون. معالم على طريق السعادة: وحدة وقوة التعلّق:

إن أعظم منن الله ونعمه على العبد الإيمان والتوحيد الذي يربطه بـالله وحـده لتكـون حياتـه كلـها لله سبحانه وتعـالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وتتضـح غايتـه في الحيـاة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، مـا أعظـم أن يكـون العبـد الضـعيف الفقـير العـاجز مرتبطـاً بـالله القـوي الغـني القـاهر، الله الذي لا منتهى لكماله، ولا نهاية لجلالـه، إنـه حينئـذ يـرتبط بالسـماء، يرتبط بنـور الـوحي الـذي يعطـي لهـذه الـروح غـذاءها الـذي جعلـه الله في الإيمـان الحـق ليجـد فيـه المـؤمن اللـذة والحـلاوة والمتعـة والسـعادة وطمأنينة القلب وسكينة النفس، كمـا قـال رسـولنا الأمـين ﷺ: ((ذاق طعـم الإيمـان مـن رضـي بـالله ربـاً وبالإسـلام دينـاً وبمحمـدٍ ﷺ نبيـاً

ورسولاً))[1]. إنها وجهة واحدة عظيمة، لا أهواء متعددة، ومقاصد متباينة تحير العقل وتكدر الخاطر وتغم القلب والنفس.

ما أعظم هذا الاستقرار والسكينة عندما يخضع المؤمن لإله واحد بينما غيره من الناس يخضعون لقوى البشر يخشون منها ضراً أو يرجون منها نفعاً، بينما المؤمن حر طليق لا تعلق ولا تعبد له إلا لله وحده، صلته بالله وحده حبّا له وخشية منه، وإنابة إليه، وتوكلاً عليه .

وحدة وعظمة التألق:

الناس يبحثون عن قدوات عظيمة يقلدونها ونماذج بشرية يتبعونها بينما المؤمن قدوته العظمى وأسوته المثلى رسول الله ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] فتتوحد الوجهة وتتفرد القدوة ويتجلى الصراط المستقيم فتنسكب الطمأنينة في القلب، قدوة اجتمع فيها ما تفرق في العظماء من الكمال البشري، إنه سيد الخلق ﷺ نظرات عقله راجحة، وأساليب دعوته حكيمة، وحسن معاملته عظيمة، رحمته غامرة، وهيبته حاضرة، وسماحته ظاهرة، هو الزوج

(١) رواه مسلم حديث رقم(٣٤).

الكريم، والأب الرحيم والقائد القوي، والصديق الوفي، والشجاع الكمي، والمخطط العبقري، والمعلم التربوي، والرائد الحضاري، والرجل الإنساني، قدوة شاملة كاملة معصومة. ما أعظمها من قدوة، وما أحلاها من لذة لمن يعيش الحياة معها ومرتبطاً بها، كما أخبر ﷺ عن ذلك بقوله: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار))[1] هذه المشاعر الفياضة من المحبة القلبية والميل العاطفي يغذيها الإيمان وينميها ويجعلها متعةً ولذة في هذه الحياة، وهذا ما جعل سلف الأمة يقولون عندما تذوقوا هذه الحلاوة "والله إنا لفي لذة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف"، لقد ذاقوا طعم الصلة بالله سبحانه وتعالى فلم تتعلق قلوبهم بسواه، وارتبطت حياتهم كلها عملاً وأملاً برسول الله فلم تكن لهم قدوة سواه، فتحققت لهم منح ربانية عظيمة يخبر عنها النبي ﷺ فيقول: ((إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إني أحب فلاناً فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض))[2]. فإذا رأيت

---

(١) صحيح البخاري رقم(١٦)، صحيح مسلم، رقم (٤٣).

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٦٣٧).

القلوب تهفو إليك والأيدي تصافحك، والوجوه تبتسم لك، والعيون تنظر إليك نظرة المحبة، فاعلم أنها لغة الحب الإيماني وكلمات الشعور القلبي التي تتحقق بها السعادة، وتيقن أن هذه الآثار هي ثمرات الإيمان انعكست في حياتك طمأنينة وسعادة وهناء.

ولقد ادرك الحسن البصري أثر الصلة بالله تعالى على حياة العبد وسعادته فقال حين سئل: (ما بال أهل الليل على وجوههم نور؟ قال: خلوا إلى ربهم فألبسهم من نوره سبحانه وتعالى) ولذلك تجد المؤمن في خضم المحن وشدة الابتلاء ساكن النفس مطمئن القلب، واثقاً بوعد الله عز وجل ونصره سبحانه وتعالى كما قال ﷺ لأبي بكر (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)، وكما قال موسى لقومه حين قالوا له: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]، وكما أخبر الله تعالى عن النبي ﷺ وأصحابه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، فما أعظم هذه الطمأنينة المنسكبة في القلب لا يكون معها خوف مقلق ولا ألم محزن.

الصلة بالله أفراح وأشواق:

عندما يتعلق قلب المؤمن بالله ويتصل به، يجد في قلبه فرحاً بفضله وشوقاً للقائه، ولسان حاله يقول:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غضابُ
إذا صح منك الود فالكل هينٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

فتكون الأشواق والأفراح كلها مرتبطة بالله تعالى، فالفرح الحقيقي يكون مرتبطاً بالله ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس: ٥٨]، فعندما يفرح الناس بالأموال والأولاد ويسعدون بالدور والقصور، يفرح المؤمن بسجدة خاشعة في ليلة هادئة في وقت سحر يناجي فيها ربه ويسكب دمعه ويتضرع بدعوة ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، هذا الشوق الذي يستولي على القلب عندما يتغلغل فيه الإيمان فيجعله يتجافى عن دار الغرور وزخرفها وزينتها ويتطلع إلى لقاء الله، عندما نعلم ذلك ونحس به لن نستغرب فرحة بلال رضي الله عنه عندما حانت وفاته فردد فرحاً مستبشرا "غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه".

الصلة بالله تضحية وفداء:

المؤمن يعلم أن الحياة الدنيا دار ممر، والآخرة هي المستقر، وأن الراحة الحقيقية في الدنيا هي في طاعة الله والعمل لدينه لتكون كلمة الله هي العليا، ومن أدرك هذه الحقيقة وعرفها أدرك سبب ما فعله أنس بن النضر رضي الله عنه حينما هاجه الشوق إلى لقاء الله سبحانه في غزوة أحد ليعوض ما فاته في غزوة بدر فانطلق مشتاقاً راغباً، ومحباً صادقاً للقاء الله سبحانه وتعالى والاستشهاد في سبيله، وهو يقول (الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس بن مالك: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه) فيحقق الله له مناه فيختاره شهيداً في سبيله.

وذاك عمير بن الحمام رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ يقول حينما دنا المشركون في بدر: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله: جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: (نعم)، قال بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قولك بخ بخ؟) قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: (فإنك من أهلها) فأخرج تمرات

من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

الصلة بالله جماع كل خير:

وذلك لأن الإيمان يحيل الحياة كلها إلى جنة خضراء، يتنعم فيها المؤمن لعلمه وبأن ما أصابه كله قدر من الله تعالى، وفيه له خير، وله به أجر، وحاله متقلب بين نعمة يشكرها، وبلية يصبر عليها، كما وصف ذلك رسول الهدى ﷺ بقوله: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن)، ففي كل الأحوال يرى حكمة الله، ويسلم لأمر الله، ويبتغي في السراء وفي الضراء رضوان الله، ويلتمس في كل آن أجر الله، في كل صغيرة وكبيرة حتى الشوكة يشاكها يكفر الله سبحانه وتعالى بها من خطاياه.

الصلة بالله إيجابية وعطاء:

إنها نعمة لا تدانيها نعمة ولا توازيها منة عندما ينشغل الناس بجمع الأموال والثروات، وينشغل العبد المؤمن بجمع الأجور والحسنات، يلتمس أجراً هنا وحسنةً هناك، كما كان أصحاب محمد ﷺ لا يتنافسون على غنائم الدنيا ولا على لعاعتها وإنما نرى لهم صورة رائعة صورها أبو ذر في حديثه حيث قال: (أن ناسا من

أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)، وفي رواية (فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤته من يشاء).

وقد بلغ الصحابة من الإيجابية والعطاء أن أحدهم كان إذا لم يجد ما يتصدق به يعمل حَمَّالاً، لا ليتوسع في الرزق ولا ليرفع من مستوى المعبشة ولا ليزيد في الأرصدة، ولا ليؤمن المستقبل كما يقول الناس اليوم، ولكن ((يتحمل الحَمالة ليجد مالا ينفقه ويتصدق به، بل هناك ما هو أعجب كما روى ابن عباس قال أصاب نبي الله ﷺ خصاصة، فبلغ ذلك علياً فخرج يلتمس عملاً يصيب فيه شيئا ليقيت به رسول الله ﷺ، فأتى بستانا لرجل من اليهود فاستقى له سبعة عشر دلواً، كل دلو بتمرة فخيره اليهودي من تمره سبع عشرة عجوة فجاء بها إلى نبي الله ﷺ.

الصلة بالله سعادة وهناء:

إذا ما انشغلت ألسنة الناس بسفساف القول والكذب والغيبة والنميمة، تجد المؤمن يرطب لسانه بذكر الله، ويجلو قلبه بالاستغفار، عملاً بوصية المصطفى ﷺ إذ يقول: ((لا يزال لسانك رطباً بذكر الله)) ويقرأ القرآن ويستمع إليه وينصت لتنزل عليه الرحمة والسكينة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وكما في قول النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده).

وإذا ملأ الناس لياليهم بالصخب والسهر وربما بالمعاصي والآثام من الأفلام الماجنة والأغاني الهابطة، يقوم المؤمن في هدأة الليل ليخلو بربه ويناجيه ويصف أقدامه قائماً لله، ويمرّغ جبهته ساجداً لله، ويذرف دمعته ضارعاً لله، ويغتنم أعظم الأوقات حين ينزل الحق سبحانه في الثلث الأخير من الليل نزولاً يليق بجلاله، كما أخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام بقوله (ينزل ربنا إذا بقي الثلث الأخير من الليل فينادي هل من سائل فأعطيه هل من تائب فأتوب عليه هل من

مستغفراً فأغفر له وذلك الدهر كله)، فكيف لا ينال السعادة من كانت هذه حاله، وكان بالله اتصاله، وقد وعده رسول الله ﷺ بالجنة بقوله (أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا جنة ربكم بسلام).

ما بال أكثر الناس اليوم يستيقظون متجهمين عابسين مقطبين، بينما المؤمن يقوم في صباح يومه نشيطاً منشرحاً، السبب في ذلك يبينه لنا النبي ﷺ كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)[1].

كل مؤمن بيده مفاتيح السعادة ولديه القدرة للوصول إلى منتهى الحبور وغاية السرور وكمال الانشراح، وروعة الأفراح وذلك يتحقق بالصلة بالله تعالى، ولذلك قال ﷺ: ((وجعلت قرة عيني في الصلاة)) وكان يقول عليه الصلاة والسلام ((أرحنا بها يا بلال)).

---

(١) صحيح البخارى حديث رقم (١١٤٢).

فالعبادة ليست سكوناً بل حركة، وليست ضعفاً بل قوة، وليست سلبية بل إيجابية، وليست اضطراباً بل طمانينة، ولذلك كانت العبادة أحب إلى المؤمنين من أجمل اللذات وأحسن المتع، ولنتأمل لذة الجهاد في سبيل الله عند خالد بن الوليد رضي الله عنه إذ يقول: " ما ليلة تهدى إلي فيها عروس أنا لها محب مشتاق أحب إلي من ليلة شديد قرها كثير مطرها أصبح فيها العدو فأقاتلهم في سبيل الله عز وجل".

ينبغي لنا أن نراجع أنفسنا فلا تشغلنا هذه الحياة بمطالبها المادية، ولا بمتعها الزائلة، ولا بلذاتها العارضة، وأن نعلم أن في الإيمان والطاعة والعبادة لذة لا تعدلها لذة، بل وفيها التوفيق والتيسير والرزق كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ**﴾[الطلاق: ٢-٣]، إنها السر الإيماني الذي يحيل الظلمة نوراً ويقلب الحزن سروراً .

فالله الله في العبادة، والله الله في الإخلاص، والله الله في المناجاة، والله الله في تلاوة القرآن، والله الله في لحظات الأسحار والله الله في الأذكار والاستغفار، الله الله في تصفية القلوب وتهذيب النفوس. نسأل الله العظيم من فضله وكرمه. إنه سميع قريب.



الزاد في مواجهة الصعاب

أكرمنا الله بالإيمان، وأعزنا بالإسلام، خلقنا بقدرته، ورزقنا من نعمته، ووفقنا بهدايته، قلوبنا موصولة برجائه، ونفوسنا معلقة بعطائه، وآمالنا في رحمته، وطموحنا إلى جنته، توكُّلنا عليه، وإنابتنا إليه، فنحن لله وبالله وعلى الله. فإذا عظُم الخطب، واشتد الكرب فلا نجاة إلا بعون من الله - سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]، ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٤-١١٥].

وإذا أحدق الشر وتضاعف الضر فلا كاشف له إلا الله، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨].

إذا توالى الهم ، وتتابع الغم ، فلا فارج له إلا الله .. ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الأنبياء : ٨٧-٨٨].

وإذا جاءت النقمة ، أوحلت الفتنة فلا صارف لها إلا الله.. ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[يوسف : ٣٤].

كلما تفاقم الضرر واقترب الخطر، فلا ملجأ من الله إلا إليه.. ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[الذاريات : ٥٠].

الصلة بالله – سبحانه وتعالى – تعلقاً به ، ويقيناً بموعوده، وأملاً في نصره، ورضىً بقضائه، ومحبة في ثوابه، وخوفاً من عقابه، وتوكلاً على قوته .. ذلك هو المعوّل عليه في كل خطب ، وهو الموثوق به بإذن الله – عز وجل – في كل كرب..

تضرَّع إلى الله، واستمسك بمنهج الله ، وأدم مناجاة الله.. ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾[البقرة : ١٨٦].

فالحق – سبحانه وتعالى – ينادينا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠].

ويخبرنا جل وعلا بتحقق المراد، إذا تم اللجوء إليه والتضرع والتذلل بين يديه:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾[الأنفال: ٩].

يأتي المدد من الله، ويتنزل النصر من عند الله، ويَسْكبُ التثبيت من الله السكينة في النفوس، ويصرف اليقين الخوف والجزع .. اليقين بالله – سبحانه وتعالى – وليس شيء غير ذلك هو الصادق للهموم والغموم، لا التجاء إلى أسباب الكثرة العددية، ولا إلى وفرة القوة المادية، ولا إلى جودة الاستعدادات العسكرية، إنما اللجوء إلى رب البرية.

كل شيء يستند فيه إلى غير الله ؛ فإنه إلى ضياع وخراب، وكل اعتماد وتوكل على غير الله ؛ فإنه إلى خسار وانهيار، وإن المؤمن لَيرى ويوقن وهو يتلو آيات القرآن، أن ذلك حق لا مرية فيه، ولكن تعلق القلوب بالدنيا الزائلة، ربما ينال من ذلك، والله – جل وعلا – قد بيّن لنا أن الالتجاء إلى غيره أمر لا تحمد عقباه، فقال – سبحانه وتعالى – : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[الزمر: ٣٦].

مهما اجتمعوا ، ومهما كثروا ، ومهما عظموا ، ومهما انتفخوا.. فكلهم (من دون الله) في صيغة موجزة ، تدل على الاحتقار لهم ، وبيان ضعفهم ، وزرع اليقين بفشل كيدهم وذهاب ريحهم ، لأن الله – سبحانه وتعالى – قدّم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [الزمر: ٣٦] ، ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ [الزمر: ٣٧] ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨- ٣٩].

هل بعد هذا الوضوح في الآيات من وضوح في التفريق بين من يلجؤون إلى (من دون الله) أو يعتمدون عليه ، أو يظنون أنهم يقدرون على تحقيق ما يصبون إليه بمساعدتهم ، وبين من يلجأ إلى الله – عز وجل – ، وهو كافٍ عباده ، وهو حسبهم – سبحانه – ، وهو وكيلهم – جل وعلا – .

كان النبي ﷺ صادق الاعتماد والتوكل على الله ، أما رأيته وهو قافل من الطائف بعد أن لقي ما لقي من الأذى؟ ما الذي صنعه ؟ إلى من توجه ليذهب عنه حزنه ؟ ألم يلجأ النبي ﷺ إلى الله - عز وجل - وهو يناديه في تضرع خاشع : ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي...)) فينزاح الهم والكرب ، ويزول الحزن ، ويقوى اليقين ، ويعظم الإيمان ، وتنقشع الغمة ، وتعلو الهمة.

ويوم واجه النبي ﷺ أضعاف من معه من المؤمنين في جيش قريش ،في يوم بدر توجه - عليه الصلاة والسلام - إلى الله - جل وعلا- : ((اللهم أنجز لي ما وعدتني ،اللهم آتني ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض..)) فما زال يهتف بربه ماداً يديه ، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداءه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، فقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك إنه سينجز لك ما وعدك.

عند التقاء الصفوف وتكاثر الأعداء ، يستعين النبي ﷺ برب الأرض والسماء.

كما رأيناه في الأحزاب ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] في هذا الموقف كبّر النبي ﷺ وبشّر بفتح قصور كسرى وقيصر وكانت النتيجة ؟ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[الأحزاب: ٢٥].

ويوم توجه النبي ﷺ إلى خيبر لقتال فلول اليهود المتجمعة فيها ، استعان بقوة الله ، وقال وهو مقبل على ديارهم.. ((الله أكبر .. الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)).

هكذا كان دائماً صادق الالتجاء إلى الله ، يواجه كل خطب بالاستعانة بالله، فينتصر بإذن الله فالصبر زاد المؤمنين ، والنصر عقبى الصابرين ، والقادر الجبار نعم العون إن عز المعين.

لابد من أوبة صادقة، وإنابة مخلصة، والتجاء حقيقي مخلص لله – سبحانه وتعالى– ، : ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، فلنعد إلى الله ولنترك الاعتماد على كل من سواه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

ولقد كان رسولنا ﷺ يعلمنا صدق اللجوء إلى الله ففي الصحيحين من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : ((لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم)).

وفي حديث أسماء بنت عميس عند أبي داود بسند حسن ، أن رسول الله ﷺ خاطبها فقال : ألا أعلمكِ كلمات تقوليهن عند الكرب ! قالت : بلى يا رسول الله ، فقال لها : قولي ((الله ربي ولا أشرك به شيئا)).

فالله هو الذي بيده كل شيء ، وهو التي تنفذ مشيئته في كل شيء ، وهو الذي تنتصر قدرته على كل شيء، ولذلك ينبغي لنا أن نحرر هذا الأمر في واقع حياتنا بصدق اليقين بالله والاعتقاد الجازم أن الأمر كله بيد الله ، وأن النصر من عند الله ، وأن القوة كلها لله ، وأن العزة كلها لله.

لقد لقن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المعاني لابن عباس حين قال له وهو رديفه : ((يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ... تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك

بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك)).

وكما بيّن - عليه الصلاة والسلام - في رواية أخرى لهذا الحديث: ((وأعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك))[1].

من كان هذا يقينه، فأي شيء يرهبه؟ ومن كان هذا إيمانه، فأي شيء يخيفه؟

فالثبات لا يتحقق ، والشجاعة لا تظهر، والحمية الإيمانية لا تتوقد، إلا إذا ملأ الإيمان القلب وانسكب اليقين في النفس، وكان الرضا بقضاء الله وقدره والإيمان به عظيماً، فالذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله، فمن سلّم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع ؛ فإن نفسه التي يخاف عليها سلّمها إلى وليّها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها، وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها، فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٢٠/٤٦٣.

وفي التسليم أيضاً لطيفة أخرى ، وهي أنه إذا سلّم لله فقد أودع نفسه عنده وأحرزها في حرزه ، وجعلها تحت كنفه لا تنالها يد عدو عاد، ولا بغي باغٍ عاتٍ، وكما قال علم الشجعان علي رضي الله عنه:

أي يومي من الموت أفر   يوم لا يقدر أو يوم قدر
يوم لا يقدر لا أرهبه   ومن المقدور لا ينجو الحذر

وهكذا قال شيخ الإسلام ابن تيميه في مواجهة ما أحاط به من الخطوب، وما حل به من الكروب: "ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أينما رحلت فهي معي .. أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وخروجي من بلدي سياحة".

وهاهم إخواننا في فلسطين عندما يئسوا من قوة الناس وإعانة الخل ، ولم يلتجئوا إلا إلى الله – سبحانه وتعالى – استطاعوا أن يثبتوا على مدى تلك الأعوام المتعاقبة، رغم كل البغي والظلم والعدوان، وتغيير الموازيين، وانتكاس العدالة، وجور المحاكمة، ورغم قوة البطش الصهيونية الغاشمة الظالمة، نرى ثباتاً عظيماً في صفوف المؤمنين، وهلعاً ظاهراً وجبناً بيّناً، وخوفاً مريعاً في صفوف المعتدين.

خوف من شباب وأطفال صغار لا يملكون سلاحاً سوى الأحجار، ولا يجدون شيئاً يواجهون به أعدائهم إلا قوة الواحد القهار.

ومـن هنـا نقـول: مـن استمسـك بإسـلامه ويقينـه ؛ فإنـه قـوي وإن لم يكـن لديـه سـلاح - كمـا تـرجم - ذلـك إخواننـا وأطفالنـا في الأرض المباركةوهذا شاهد من شواهد صدق ما أخبرت به من أثر اليقين بالله - عز وجل -، وصدق الالتجاء إلى الله . يدعونا لأن نؤكده لأنفسنا من واقعنا المعاصر فضلاً عن تاريخنا الماضي ، فضلاً عن ما بين أيـدينا مـن آيـات القـرآن وأحاديـث السـنة وأحـداث السـيرة أن النصـر مع الصبر، وأن الفرج مع اليقين، وأن مع العسر يسراً، وأنه لـن يغلـب عسر يسرين وأن القوة مع الإيمان وأن العـزة مـع الإسـلام . والله غالـب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



ألا إن نصر الله قريب

من خلال المنظار المادي تبدو الصورة – فيما يتعلق بأحوال المسلمين – سوداء، بل قاتمة السواد، فمن جرائم الإبادة في البوسنة، إلى هدم المسجد البابري في الهند، إلى احتلال العراق وأفغانستان، إلى مأساة فلسطين من الإبعاد والتهجير، إلى الاعتقال والتعذيب إلى العدوان والتخريب إلى صور أخرى من المآسي، حتى إن المرء لا يكاد يرى إلا مزيداً من المعاناة، ولكن المستقيمين على أمر الله مطمئنين لرضاهم بقدر الله، وثقتهم بنصر الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠]، والمحن – في فقههم – من سنة الله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ

ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، إنها المحنة التي تسفر عن منحة، والشدة التي نهايتها النعمة وهو العسر الذي يعقبه يسر، بل يسران كما فسر رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥-٦]، فليتأمل المسلمون في آيات الله، وليتدبروا في وقائع التاريخ، وليستفيدوا لأنفسهم يقيناً بالنصر لا يتزعزع وثقة بالله لا تضعف.

إبراهيم الخليل -عليه السلام - بلَّغ دعوة الله، واستقام على أمره، وتألب عليه الأعداء و﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فما جزع ولا تردد بل كان عظيم الثقة بربه ومولاه فكانت النتيجة ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وموسى عليه السلام خرج ببني إسرائيل اتباعاً لأمر الله، فإذا فرعون بجنوده من ورائهم، والبحر من أمامهم، وإذا ببعض ضعاف الإيمان يبلغ بهم الخوف والجزع مداه ويصرخون: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١]، وعلى الفور يعلنها موسى كلمة تدوي في سمع الزمان، وتخاطب كل رعديد جبان ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]،

وجاء الفرج من عند الله ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[الشعراء: ٦٣].

ويوسف عليه السلام خرج من غيابة الجب إلى أبهة القصر، ثم خرج من تهمة الخيانة إلى العفاف والصيانة ثم خرج من ظلمة السجن إلى تولي الأمر، ومن الغربة والعناء إلى الألفة واللقاء، ولم يكن ذلك بحوله ولا حيلته بل بفضل الله ومنته، جزاء صبر يوسف واستقامته حيث قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠].

والمصطفى ﷺ خرج من مكة مهاجراً طريداً، ثم عاد إليها فاتحاً مجيداً، وبلال بن رباح - رضي الله عنه - تقلبت أحواله من التعذيب عبداً تحت الصخرة، إلى التشريف مؤذناً فوق الكعبة، والأمام أحمد بن حنبل تلوح لنا صورته وهو يجلد بالسياط المؤلمة ثم نراه بعد حين وهو صاحب المشورة الملزمة، وشيخ الإسلام ابن تيمية كان ثابت الجنان، منشرح الصدر وهو في أوج محنته ويقول معلماً: "أنا جنتي في صدري، سجني خلوة، ونفيي سياحة"، وفي عام ٤٩١هـ دخل النصارى بيت القدس، ثم طهره صلاح الدين بعد نحو تسعين من

السنين، والتتار دمروا الحضارة، وأسقطوا الخلافة سنة ٦٥٦هـ ثم هزموا – شر هزيمة – في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ثم دخل أكثرهم في دين الإسلام أفواجاً.

نعم محن أعقبتها منح، كل ذلك وفق سنة الله ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

إن قربان النصر إيمان بالله صادق، يعمق الطمأنينة والرضا بقضاء الله، ويزرع الثقة بنصر الله، ويدعو لحمل رسالة الله، وتبليغ دعوة الله، وإعلاء كلمة الله وحينئذ يتحقق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[الحج: ٣٨]، ثم لابد من الاستقامة على أمر الله والتزام شرعه ليتحقق وعده ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧].

أما أعداء الأمة فلن ينالوا منا شيئاً إذا اعتصمنا بالله، واستقمنا على أمره ووثقنا يقيناً بنصره ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ماذا بأيديهم؟ فليقتلوا الرجال، وليسبوا النساء، وليدمروا المساجد، وليحرقوا المنازل، وليفعلوا كل شئ لمحاربة الإسلام والمسلمين؛ فإن دين الله سيعلو، ونوره سيعم الآفاق، ﴿يُرِيدُونَ

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

[الصف: ٨-٩]، من ذا يقدر أن يطفئ نور الله ؟ ومن يستطيع أن يحارب الله ؟ ألا كل محارب لله مهزوم، وإنما يضر نفسه، ألا وإن دين الله منصور ، ولكن المحروم من لم يكن مشاركاً في نصر الدين أما المحاربين للدين نقول لهم :

قل لي بربك هل تطيق ذبابة حجباً لنور الشمس وهو الباري

ونقول لهم :

يا ناطح الجبل العالي ليكلمه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

وإلى الناصرين لدين الله نقول :

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

ونقول أيضاً :

اشتدي أزمة تنفرجي بصباحٍ حرٍ منبلج

وأخيراً نقول للمسلمين جميعاً : استقيموا واستيقنوا فإن نصر الله قريب.



الأرباح والخسائر

هذه مقالة كتبت في رمضان ولكن جل ما فيها خارج عن رمضان، وبعيد عن فريضة الصيام، لكثرة ما يكتب عن فضائل رمضان وحِكَم الصيام، ولأنني رأيت أن هذا التركيز على الموضوعات ذات الصلة بهذا الموسم كأنما تختزل الزمان فيه، وتحصر العمل والبذل والأجر والفضل فيه، فأردت أن أبتعد عن رمضان إلى المدى الأوسع من الزمان، وأن أنأى عن الحديث عن الصيام إلى الآفاق الأرحب في معاني العبادة الواسعة، وأحسب أنك - أيها القارئ - ستوافقني على هذه الفكرة التي أعرضها.

نحن في رمضان نجتهد في الطاعات، ونحرص على اغتنام الأوقات، ونستحضر في أعمالنا ما ورد في شأنها من الأجور والحسنات، ومن ثم نشعر بأننا نجني الكثير من الأرباح، ونعظم رصيد الحسنات، فهناك أداء الفرائض من الصلوات، والسنن الرواتب من التطوعات،

إضافة إلى قيام الليل وصلاة الوتر، فضلاً عن تلاوة القرآن والإكثار من الذكر، مع البذل والإنفاق، وحسن الصلة والارتفاق وغير ذلك من الأعمال، وذلك يشيع في نفوسنا فرحة غامرة وسعادة ظاهرة.

إن السؤال المطروح هنا هو:

هل هذه الأعمال وأجورها العظام مقصورة على رمضان ؟، وهل المسلم عموماً والدعاة والصالحون خصوصاً معنيون بتلك الأعمال في هذا الموسم فحسب؟، ويدور في خاطري بقوة أين بقية العام؟، وأين أحد عشر شهراً من الزمان ؟

ومن هنا لفتت نظري واسترعت انتباهي وشغلت فكري كلمات ليحيى بن معاذ يقول فيها: " الدنيا حانوت المؤمنين، والليل والنهار رؤوس أموالهم، وصالح الأعمال بضائعهم، وجنة الخلد أرباحهم، ونار الأبد خسرانهم"[1]، هذه الكلمات تلخص قصة الحياة كلها، وهي كلمات في غاية الوضوح والبساطة، رغم أن معانيها عميقة، ودلالاتها دقيقة، إنها كلمات تهزنا بقوة، وتوقظنا من الغفلة، لننظر إلى الآفاق الأوسع والأرحب، إلى الزمان كله لا شهر واحد منه،

---

(١) الصلاة والتهجد لابن الخراط (ص ٣٠١).

إلى الأعمال الصالحة كلها لا إلى الصوم وحده، حتى نعرف حقيقة الصفقة ورأس المال والبضاعة والأرباح والخسائر.

والآن أنتقل بك - أيها القارئ - إلى غيض من فيض من نصوص الأعمال الصالحة التي ليس لها خصوصية في رمضان سوى فضيلة الزمان ومزيد من مضاعفة الأجر، وهي عند المؤمنين الصادقين من برنامج حياتهم اليومي الذي يتوافر فيه الحرص والجد والاستمرار كما هو الشأن في رمضان، وإليك هذه الأمثلة:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: ((**صلاة الرجل في جماعة تُضعّف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين درجة، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحُط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه مادام في مصلاه: اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة**))[1]، أليس هذا في سائر الأيام من العام؟.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: ((**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة**

---

(١) متفق عليه.

الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم – كيف تركتم عبادي؟، فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون))[1]، فهل هذه الشهادة مقتصرة على أيام وليالي رمضان ؟ فأين الجموع الغفيرة من شهود صلاة الفجر في سائر أيام العام ؟.

– عن أنس رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: **((من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة))**[2]، فهل هذه الغنيمة العظيمة مقصورة على هذه الأيام الفاضلة؟.

ومثل ذلك يقال في ما وردت به النصوص من فضائل الذكر وتلاوة القرآن وإنفاق المال وصلة الرحم وإطعام الطعام وكل عمل من الأعمال التي نحرص عليها في رمضان، فبقدر ما نفكر في عظمة الأرباح في رمضان – وهو شهر من العام – بقدر ما يجب أن نفكر في فداحة الخسارة وضياع الغنائم التي نفرط فيها على مدى بقية أيام العام.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي.

وهنا يخطر ببالي أسئلة شديدة لإيقاظنا من الغفلة، هل هناك مدرسة أو جامعة تكتفي بالتعليم شهراً كل عام ؟ وهل هناك أسواق وشركات لا تعمل إلا شهراً في العام ؟ وهل هناك مستشفيات لا تستقبل المرضى إلا شهراً في العام ؟ وما هي حال أي مجتمع يمكن أن نتصور فيه مثل ذلك ؟ إن العمل مستمر لا ينقطع وهناك حدود دنيا أساسية لا تتوقف، والمواسم ليست — في الجملة – لاستحداث أعمال لا وجود لها، بل جلها زيادة ومضاعفة في الأعمال المعروفة، ومزيد من اغتنام الأوقات للحصول على أرباح أكثر، وهنا حديثي عن الفرائض وعن أساسيات من التطوعات خاصة بالنسبة للدعاة، أين هي في غير رمضان ؟ وكم هو الخسران في تركها وهجرانها ؟ وهل خسائر أحد عشر شهراً يكفي دائماً أن تعوضها أرباح شهر واحد ؟ أليست المساجد تشكو — في غير رمضان — قلة المصلين ؟ أليست المصاحف تشكو قلة التالين ؟ أليست الأرحام تشكو قلة الواصلين ؟ أليس ذوو الحاجات يشكون قلة المنفقين ؟ كم هي الخسائر فادحة وعظيمة ؟ ألسنا نلحظ هذه الصورة تتكرر في كل الأعوام ؟ وتقع من جماهير غفيرة من أهل الإسلام ؟ وهنا يثور سؤال حزين يمكن التحفظ عليه وهو:

ما فائدة رمضان وما جدواه إن لم يبق أثره ولم يدم نفعه، بل إن جاء بعده عكسه، وخلفه وراءه ما ينقضه ؟!.

دعوني من حالنا المزرية هذه واسمحوا لي أن أنقلكم إلى أجواء كلمة يحيى بن معاذ، فهذا أبو محمد الجريري يقول: قصدت الجنيد فوجدته يصلي فأطال جداً فلما فرغ قلت: قد كبرتَ ووهن عظمكَ ورق جلدكَ وضعفت قوتك ولو اقتصرت على بعض صلاتك، فقال: اسكت، طريق عرفنا به ربنا، لا ينبغي لنا أن نقتصر منه على بعضه، والنفس ما حملتها تتحمل، والصلاة صلة والسجود قربة ولهذا قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، ومن ترك طريق القرب يوشك أن يُسلَك به طريق البعد، ثم أنشد:

صبرت عن اللذات حتى تولت ... وألزمت نفسي هجرها فاستمرتِ
وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأت صبري على الذل ذلتِ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن تُوِّقَتْ تاقت وإلا تسلتِ[1]

فهل لكم – معاشر الدعاة – من هذا الموقف وتلك الكلمات من تذكرة لنعمر الحياة كلها بالطاعة ونغمرها بحسن الصلة بالله؟.

إن السر في تلك الصلة المستمرة هو حسن الفقه والفهم من جهة، ولذة الطاعة وحلاوتها من جهة أخرى، وإليك في كل جهة إيضاح:

---

(١) الصلاة والتهجد لابن الخراط (ص ٣٠٩).

ففـي الفهـم نقـف مـع قولـه تعـالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، حيث قال بعض المفسرين: "الحياة الطيبة هو ما يفتح عليه من لذة العبادة وطيب المناجاة وبرد الرضا بقضاء الله... وهذا باب من فتح له فيه يجب عليه أن يلزمه وأن يتعلق بالأسباب المثبتة له ويستعين بالله عز وجل ويسأله التأييد فيه، ويصبر ويصابر فعسى ولعل وما ذاك على الله بعزيز وإنه عليه ليسير"[(١)].

وفي اللذة إليك ما أجاب به (حمامة العابد) عندما سئل ما أفضل عملك؟ فقال: " ما أتتني صلاة قط إلا وأنا مستعد لها ومشتاق إليها، وما انصرفت من صلاة قط إلا كنت إذا انصرفت منها أشوق إليها مني حيث كنت فيها، ولولا أن الفرائض تقطع لأحببت أن أكون ليلي ونهاري قائماً راكعاً ساجداً "[(٢)].

فهل ندرك - بعد كل ما ذكرت – دلالة العبارة التي نكررها: أن رب رمضان هو رب سائر أيام العام، وهل تدركون أيها الدعاة بل

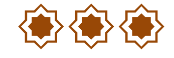
---

(١) الصلاة والتهجد لابن الخراط (ص ٣٠٨-٣٠٩).

(٢) الصلاة والتهجد لابن الخراط (ص ٣١٦).

أيها المسلمون كم هي الخسائر العظيمة على مدى هذه الأيام التي تنقطع فيها الأعمال؟.

وأخيراً هل ندرك أن دوام الأعمال وعظمة الأرباح مقرون بروح العبادة وخشوعها ولذتها وحلاوتها ؟، فمن لم يجد ذلك ويجتهد في تحصيله فإنه يفقد سبباً من أعظم أسباب الاستمرار والدوام، واستحضروا معي دائماً كلمة يحي بن معاذ.



وصفة العمر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:-

الوصفة عبارة عن مواد وتركيبات علاجية يُوصى بها لعلاج بعض الأمراض، والوصفات العلاجية منتشرة في الأوساط الاجتماعية وخاصة للأمراض الشائعة كالأنفلونزا والسعال والصداع، فما إن يُصاب أحد بشيء من ذلك حتى تنهال عليه الوصفات من المقربين، وأبرز مزايا الوصفات أنها مجربة، فكل من يذكر لك وصفة يقول لك: إنها مجربة ونتائجها مؤكدة، وكثير من الناس إذا أصابهم عارض صحي بحثوا عن الوصفات، وسألوا المُجربين.

وإذا ما جئنا إلى "وصفة العمر" فإن التحدي تظهر ضخامته بوضوح، بل رُبما يراه بعض الناس مستحيلاً، إذ كيف يُمكن أن تُعطي وصفة تصلح للصغار والكبار، والرجال والنساء في سائر الأوقات،

وجميع الأحوال؟!، ومثل هذه الوصفة تحتاج إلى مصداقية ضخمة، فلا تكفي فيها تجربة محدودة لأفراد قليلين، بل لابد من تجربة شاملة، ونتائج كاملة، وينبغي أن تكون المستندات أصيلة لا يختلف أو يعترض عليها أحد، وقد قبلتُ هذا التحدي الهائل، وسأقدم هذه الوصفة الفريدة، ذات المصداقية الأكيدة، والتجارب العديدة، والنتائج المفيدة.

نشأة الوصفة:

نشأت فكرة الوصفة في الخمس الأواخر من رمضان، وبدأتُ في كتابتها في الحرم المكي الشريف، فهي وليدة البقاع المقدسة، والليالي الفاضلة، وهي ومضة من أنوار الصلوات، وشعلة من ضياء التلاوات، وقبس من شعاع الدعوات، إنها ثمرة النفحات الإيمانية، وفيض التجليات الروحانية، وهبة التأملات التعبدية، ومن هنا تكتسب أولى مزاياها التي تمنحها القبول.

فكرة الوصفة:

أساس الوصفة أن كثيراً من المسلمين يعتكفون في العشر الأواخر من رمضان إتباعاً للسنة، وطلباً للأجر، ويجمعون في اعتكافهم بين الصيام والقيام والتلاوة والذكر والدعاء ولزوم المسجد، فليلهم بالصلاة مملوء، ووقتهم بالتلاوة معمور، ولسانهم بالذكر مشغول،

وقلبهم بالخالق موصول، وفكرهم بالآخرة متعلِّق، وحالهم بالإيمان متألِّق، وفي نفوسهم سكينة، وفي قلوبهم طمأنينة، يشعرون باللذة، ويحسون بالمتعة، ولو سألت أحدهم عن حاله لأجاب بجواب الأولين: ((والله إننا في لذة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف))، ومن هنا نشأتْ الفكرة، كيف يُمكن تجديد هذه المعاني وتكرار هذه الأحوال؟!

خلاصة الوصفة:

رمضان لا يتكرر في العام إلا مرة واحدة، ومع ذلك فإننا إذا أردنا تلك النتائج الرائعة والثمار اليانعة فعلينا بتكرار ما سبق، والخلاصة أن تجعل لك في كل شهر يوماً كاملاً تعتكف فيه وتكون في نهاره صائماً، وفي ليله قائماً، وتشغله بالصلوات والدعوات والتلاوات فتُعيد الذكريات، وتُجدد اللذات، وتحقق الأمنيات.

تفصيل الوصفة:

هذه التفصيلات المقترحة تُوضح المطلوب، وتُساعد على التنفيذ:

❖ اليوم: يفضل أن يكون ذلك في آخر الأسبوع، ويوم الخميس أنسب.

❖ الوقت: يبدأ من صلاة الظهر أو العصر من يوم الخميس، ويستمر إلى صلاة الفجر أو صلاة الجمعة من يوم الجمعة.

أعمال الوصفة:

❖ الصيام (صيام يوم الخميس سنة، ويستحب أن يعتكف بصوم).

❖ الاعتكاف (اعتكاف يوم وليلة صحيح عند جمهور الفقهاء).

❖ قيام الليل (وهو سنة مؤكدة واظب عليها النبي ﷺ).

❖ صلاة الوتر (وهي سنة مؤكدة أيضاً).

❖ تلاوة القرآن الكريم (التلاوة من أفضل الأعمال وأكثرها أجراً).

❖ الذكر والدعاء (وهما مما لازم النبي ﷺ فعله في كل أحواله وسائر أوقاته).

❖ الصدقة والإنفاق (والصدقة من العبادات المتعدية التي يُضاعف أجرها وتزداد بركتها).

برنامج الوصفة:

بدء البرنامج بصلاة الظهر يوم الخميس على النحو التالي:

١- أداء فريضة الظهر مع الجماعة، وأداء السنن القبلية والبعدية لها.

٢- تلاوة قرآنية لمدة ساعة، ومراجعة للحفظ لمدة ساعة.

٣- راحة لمدة نصف ساعة، والاستعداد لصلاة العصر.

٤- أداء فريضة العصر ثم تلاوة قرآنية لمدة ساعة، ومراجعة للحفظ لمدة نصف ساعة.

٥- أذكار المساء والدعاء قبل المغرب بنحو ساعة أو نصف ساعة.

٦- الإفطار وأداء صلاة المغرب وسننها، وتناول قليل من الطعام.

٧- صلاة ما تيسر من النوافل ما بين المغرب والعشاء لورود حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ وقال: ((**فَجِئْتُهُ فَصَلَّيْتُ مَعَهُ الْمَغْرِبَ فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَامَ يُصَلِّي فَلَمْ يَزَلْ يُصَلِّي حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ ثُمَّ خَرَجَ**))[1].

---

(١) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن غريب، وقال المنذري رواه النسائي بإسناد جيد.

٨- أداء صلاة العشاء والسنة البعدية، وتلاوة قرآنية لمدة ساعة، ومراجعة للحفظ لمدة ساعة، والسنن الرواتب وردت في حديث أم حبيبة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ أنه قال: ((**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلَّا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ أَوْ إِلَّا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ**)) وفي رواية الترمذي زيادة: ((**أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ**)).

٩- الذكر والدعاء قبل النوم، وأخذ قسط من النوم.

١٠- الاستيقاظ لقيام الليل قبل الأذان الأول للفجر بساعة، وصلاة ثمان أو عشر ركعات ثم الوتر بثلاث في نحو ساعة ونصف.

١١- الذكر والدعاء والاستغفار بعد الصلاة، وأخذ قسط يسير من الراحة والنوم الخفيف قبل أذان الفجر الثاني.

١٢- الاستعداد لصلاة الفجر وأداء سنتها القبلية، ثم تلاوة القرآن والذكر إلى ما بعد شروق الشمس، ثم صلاة ركعتين.

ملحوظة:

❖ يمكن أن يبدأ البرنامج بصلاة العصر وينتهي بصلاة الجمعة.

❖ يمكن الاستفادة في بعض الوقت من القراءة والمدارسة العلمية في بعض العلوم والمسائل الشرعية خاصة مع وجود بعض أهل العلم أو الزملاء من طلاب العلم.

تنفيذ الوصفة:

١- يوم في كل شهر ويقترح أن يكون محدداً بأول خميس أو آخر خميس من كل شهر ليتم تفريغ هذا اليوم والانتظام في البرنامج.

٢- يُستحسن تنفيذ البرنامج في كثير من الأوقات بالاشتراك مع الآخرين، فيمكن أن يكون برفقة زملائه في طلب العلم مع مشاركة شيوخه أو أساتذته، وربما بمشاركة زملاء العمل، وربما أحياناً الزوجة والأبناء، ولكل صحبة من هذه هدف ونفع خاص.

٣- يُستحسن لمن كان قريباً ومستطيعاً أن يُنفَذ البرنامج في أحد الحرمين الشريفين لفضيلة المكان وأثره النفسي والإيماني، وما يستدعيه من ذكريات العبادة في رمضان، وإن لم يتيسر ذلك ففي أي مسجد من المساجد، وإن تعذر في بعض الأحيان فيمكن تنفيذ البرنامج في معظمه في أحد المساجد وبقيته في الليل يُنفذ في البيت إلا أن ذلك يفوت صفة الاعتكاف الذي يُشترط أن يكون في مسجد من المساجد، والغرض من ذلك ألا يوجد ما يمنع من تنفيذ البرنامج وجني ثماره وفوائده.

٤- يُستحسن أن تخصص بعض المال لتنفقه صدقة في سبيل الله لتجمع أكبر قدر ممكن من الأعمال الصالحة في هذا اليوم.

٥- يُستحسن تخصيص ساعة في هذا اليوم للتأمل والتدبر في حالك والمراجعة والمحاسبة لأعمالك، وتجديد النية وإعلاء الهمة في عمل الطاعات ومجانبة المعاصي والسيئات.

منجزات الوصفة:

١- الصيام والاعتكاف.

٢- تلاوة ما بين ثلاثة إلى خمسة أجزاء من القرآن الكريم.

٣- مراجعة ما بين جزء إلى جزئين من القرآن الكريم.

٤- صلاة السنن الرواتب كاملة.

٥- التبكير وإدراك التكبير في جميع الصلوات.

٦- المكوث في المسجد وكثرة الذكر والدعاء.

٧- قيام الليل والوتر وكثرة النوافل والتطوعات.

٨- الصدقة والإنفاق في سبيل الله.

وإضافة إلى ذلك فثمة نفحات إيمانية وثمرات تربوية يُرجى أن تُحصّل من هذا اليوم الحافل من الطاعات والقربات، فلعله

أن يكون في ذلك تطهيراً للنفس وزكاة للقلب، ولذة للروح، وزيادة للإيمان، وإحياء للخشوع، وتجديداً للخضوع، وتلذذاً بالمناجاة، وتعلقاً بالطاعة، وإذكاء للحماسة، وإعلاء للهمة، فاللسان رطب بتلاوة كتاب الله، والقلب مطمئن بذكر الله، والعين دامعة من خشية الله، والأيدي سائلة عطاء الله، والجباه ساجدة لعظمة الله، والأقدام مصفوفة قياماً لله، والعقل متدبر في نعمة الله، والوقت مملوء بطاعة الله، والجهد مستنفذ في مرضاة الله، فما أصدق الوصف القرآني لمن هذا حاله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وما أظهر الارتباط بالغاية في هذه الصورة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦].

وهكذا ترون أن هذه وصفة للعمر كله، وللناس كلهم، وللجوارح كلها، وفي الأوقات كلها، وهكذا على مدى الدهر تجدد في كل شهر رمضان، فتكون وصفة العمر ((رمضان في كل شهر)).



هذه هي.. فمن لها ؟

مهمة تصدى لها الأنبياء، واضطلع بها أئمة العلماء، وحمل عبأها الخلّص من الدعاة الأصفياء، إنها مهمة جليلة، غاياتها نبيلة، وآثارها جميلة، لكنها مهمة ثقيلة، ومع ذلك يدّعي الانتساب إليها جماهير غفيرة.

وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

وفي سائر الدول وزارات وبرامج خاصة بها، إنها التربية، التي يُربط بها بناء الأجيال، وصلاح الأحوال.

التربية تكلم عنها وعني بها الفلاسفة والعلماء منذ قديم الزمن، فأفلاطون الفيلسوف الشهير قال: " إن التربية هي إعطاء الجسم والروح ما يمكن من الجمال والكمال "، وهي كلمات جميلة ذات دلالات عميقة، فالجمع بين الجمال والكمال لكل من الجسم والروح ليس أمراً سهلاً، ولعل تعريف التربية بطبيعة عملها ومجالاته يوضح مدى

ضخامتها، فهي: " عملية تشكيل الشخصية السوية المتكاملة في جميع جوانبها روحياً وعقلياً ووجدانياً وخلقياً واجتماعياً وجسمياً ".

والتربية في المفهوم اللغوي ترجع إلى الملك والسيادة، والنماء والزيادة، فرب الدار أي مالكها وسيدها، وربَّى المال أي نماه وزاده، ومن هذه الدلالة اللغوية البسيطة تتجلى ثلاثة جوانب أساسية في المربي والعملية التربوية:

الأول: تميز المربي وتفوقه في ملكاته وقدراته وهذه بدهية من مقتضيات الملك والسيادة.

الثاني: واجب المربي في تنمية من يربيه وتزكيته وزيادة خصاله حسناً ومهاراته صقلاً.

الثالث: من مهمات التربية الحماية والوقاية إذ هذا من طبيعة مهمة المالك في ملكه.

وكذلك من طبيعة القدرة والاستمرار في النماء والزيادة، ومعنى ذلك أن التربية مهمة مستمرة لا تتوقف عند زمن أو سن معين ولا عند مستوى محدد من العلم والإدراك.

ومما يوضح صعوبة هذه المهمة هو ميدان عملها إذ هي في الأساس تتعامل مع النفوس والأرواح لا مع الجسوم والأشباح،

والـنفس البشـرية عـالم مـن الغرائـب والعجائـب، وهـي مـن أعظـم مخلوقات الله المعجزة فقـد جعلـت في كفـة وآيات الكـون في كفـة أخـرى كمـا يتضـح مـن قولـه تعـالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، وفي سياق آيات خلق الله العظيمـة قـال تعـالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الـذاريات: ٢١]، وصدق القائل:

وتحسـب أنـك جـرم صـغير   وفيك انطوى العـالم الأكبر

فهذه النفس البشرية تجمع المتناقضات، مع سرعة في التغيرات والتقلبات، وقد أوجز ابن القيم وصفاً رائعاً يكشف طبائع النفس البشرية حين قال: "سبحان الله في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقحة - لؤم - هامان، وهوى بلعام، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل، وفيها من أخلاق البهائم حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع، غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك"[1].

(١) الفوائد، ص٩٨.

هذه النفس في ذاتها فكيف للمرء أن يربيها ويهذبها حتى يتسنى له أن يتأهل لتربية النفوس، وإذا أضفنا إلى ذلك حساسيتها وسرعة تأثرها بما حولها رأينا الأمر يتعاظم، وإليك وصف هذه المؤثرات في مقولة أخرى لابن القيم حيث يقول: "كيف يسلم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوى مرد، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستولٍ عليه، فإن من تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى عنه إلى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة "(1).

واليوم ونحن في عصر العولمة والقرية الكونية أضف إلى ما سبق ما تبثه الفضائيات ومواقع الإنترنت من المؤثرات في الأفكار والسلوكيات، مع ما في العالم من سعار الشهوات، وغزو الثقافات، وشذوذ الانحرافات الخلقية، وشطط الشطحات الفكرية، ومع ذلك فالتربية والتهذيب الفكري والروحي والسلوكي هي سفينة النجاح، ومفتاح الصلاح، لأن تغييرها الإيجابي مؤذن بالتغيير العام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، إنها الحصن

---

(١) الفوائد ص٦٣.

الحصين، والأساس المتين، ولابد أن يعرف قدرها، وأن تعطى حقها، إنها ليست مهمة محدودة بل رسالة مجتمع وواجب أمة، إنها مهمة منوطة بالآباء والأمهات، وواجبة على المعلمين والمعلمات، ولازمة للدعاة والداعيات، ولها أسس علمية، ومهارات نفسية، وخبرات تجريبية، ينبغي العناية بها وتحصيلها، ويلزم على الجميع أن يقتنعوا ويوقنوا أن التربية حجر الزاوية في إعداد الفرد القوي، الراشد في فكره، المتزن في سلوكه، المتميز في خلقه، والفرد أساس بناء الأسرة الصالحة وتربية الذرية الطيبة، ومن ثم وجود المجتمع الفاضل، والأمة الراشدة، هذه هي التربية من لها؟!.

